جبل التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٦٠٣٢٤٣-٨١٥١١٢-٣١٩٠٣٩
ص.ب: ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت - لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT
LEBANON

Telefax: (9611)
815112-319039-603243
P.O.Box: 117460

E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb

Web Location
Http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة©٢٠٠٥م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب او ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

داود سليمان العبيدي

# جبل التوبة

مؤسسة الرسالة
٢٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

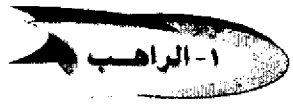


أمضى الراهب بقية نهاره في القرية الرابضة على سفح الجبل المقابل للجبل الأخضر الذي تقع عليه صومعته ، كان يريد أن يبقى في القرية إلى ما بعد الغروب ، كان يشعر بإحساس غريب يدعوه إلى البقاء فيها ، أو الذهاب إلى قرية أخرى ولا يعود إلى الصومعة! . ولكن بوادر عاصفة قوية بدأت تظهر في الأفق ، وقطع من الغيوم الصغيرة البيضاء انتشرت في السماء ، وقد أسرعت الشمس نحو المغيب ...

عاد الرعاة يسوقون أغنامهم ، وتلكأ الراهب في سيره وهو يتطلع إلى الأغنام البيضاء ، المعلمة ظهورها باللون الأحمر ، وهي تنحدر بخفة من فوق الجبال . . وأشار عدد من الرجال الذين عادوا من الحقل ، يتقدمهم رجل رث الثياب ، يشتد على حماره ، أشاروا عليه بالإسراع إلى الصومعة .

ازدادت قوة الريح ، وأقبلت السحب يلهب ظهرها سوط البرق ، ولم تعد أنامل الشمس الوردية تنفذ خلال الغيوم البيضاء .

وعادت أسراب الطيور تزقزق في السماء ، وعلى مسافة بعيدة ظهر أحد الرعاة يتقدم غنمه ، يتلفت بين لحظة وأخرى حاثاً لها على الإسراع . .

وقف الراهب ينظر إلى الجبل الأخضر الذي انتشرت عليه بعض الأشجار الصغيرة النامية ، والتي أخذت الرياح تهزها بعنف ، وينظر إلى الصخور التي أحبها ، وعاش إلى قربها ، وسكب دموع التوبة على بعضها ، هذه الصخور تبدو له هذا اليوم غريبة منفّرة ، لا تطاوعه نفسه على الاقتراب منها .

غطت الغيوم السماء ، وبدأت ترسل رذاذاً تساقط على وجه الراهب ولحيته ، فمسح وجهه بيده ، ولم يكترث لدوي الرعد الذي يصم الآذان . .

بدأ المطر يشتد ، وأسرع الراهب يسلك الطريق المعبّد إلى الصومعة ، ولم تنج ثيابه من البلل ، وعندما دفع باب الكهف الذي اتخذه صومعة ، شعر بيد خفية تمنعه من الدخول . .

أين تذهب في هذه الساعة؟

أظلمت الدنيا ، ونزل المطر غزيراً ، وكان البرق يلمع فيكشف قمم الجبال ، وتبدو بعض الصخور البيضاء الناصعة وإلى جانبها صخور سود أو حمر داكنة .

ومن مكانه استطاع أن يسمع نباح الكلاب في القرية على سفح الجبل المقابل ، ولم يعد يرى الراعي الذي عاد مسرعا ، ولاذت الطيور بأوكارها فلم تعد تسمع لها أي صوت .

كان هذا المنظر يعجبه فيما مضى ، منظر السماء المزدحمة بالغيوم ، والمطر الغزير ، وكان ينطلق بكل كيانه يشارك الرعد في تسبيحه ، ويحس بدفقة إيمانية تغمره ولا يريد أن تغادره أبداً . .

ما أسعد تلك اللحظات التي مضت . . وما أجملها . .

ولكنه في هذا اليوم ، يبدو كئيباً منقبض النفس ، ولا يدري لماذا؟ . .

لقد بات الليلة الماضية ، متهجداً حتى الصباح ، مبللاً الأرض بدموعه ، سائلاً الله الرحمة والغفران ، وقد نام أول النهار نوماً كافياً ، وعندما استيقظ رأى أن يذهب إلى القرية لجلب ما يحتاجه منها ، ولكي يعطي لنفسه بعض الراحة ليستعيد نشاطها ، وتقوى على العبادة ومواصلة السير إلى الله .

ولكن ما إن احتوته القرية ، حتى أحس بعدم الرغبة في العودة إلى الصومعة . . كان يريد أن يبقى أطول مدة ممكنة ، وتمنى في قرارة نفسه لو قضى الليل فيها ، بل أخذ يعاتب نفسه : لماذا لم يذهب إلى القرية البعيدة ، ويتخلص هذه الليلة من الصومعة .

لقد هرب من الناس ، أراد أن ينصرف إلى العبادة ، أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

أراد أن يعبد الله حتى يلقاه وهو راض عنه .

أراد أن يزكي نفسه ويطهر قلبه ، لكي ترتفع روحه إلى مصاف الصالحين الذين أنعم الله عليهم . .

وهكذا جاء إلينا . . بعيداً عن دنيا الشهوات والملذات ، بعيداً عن المعاصي ، قريباً من الله .

بدأ في رياضة نفسه ، وتدريبها ، وتأديبها ، حتى رقّت ولانت ، وانقادت إلى طاعة الله .

وقد قابله أهل القرية أول الأمر مقابلة غريبة ، وصاروا يتحاشون النظر إليه ، أو الإقبال عليه ، أو الاقتراب منه ، وكانوا يشيرون إلى صومعته من بعيد ، ويخوّفون أولادهم منه . .

ولكن ما أن عرفوا حقيقة أمره ، وأنه من الزهّاد الذين طلقوا الدنيا ، وهجروا المعاصي ، حتى تغيّرت نظرتهم ، وصاروا ينظرون إليه بعين الإكبار والإعجاب والتقدير ، وصاروا يلتمسون على يديه البركة ، ويتمنون لو يدعو لهم .

شعر الراهب بقشعريرة تمر في جسده ، وببرودة مفاجئة ، فأسرع يوقد قنديل الزيت ، ثم يوقد النار في الموقد .

وعلى ضوء القنديل ، وألسنة اللهيب ، أخذ يتطلع إلى الجدران التي تحيط به ، فإذا به يشعر بالراحة والطمأنينة ، وشعر كأن الصومعة تعاتبه ، كأنها تناجيه ، وتشكو إليه بعده عنها .

فنهض وأخذ يدور في أرجاء المكان كأنه يراه لأول مرة ، وأطل من باب الصومعة ناظراً إلى السماء التي ازدحمت بالغيوم ولمعان البرق يخطف الأبصار ،ودوي الرعد يهز الجبال ، وأحس في نفسه رغبة ونشاطاً للعبادة ،فافترش حصيرته ،وراح يصلي بخشوع لم يعهده طيلة المدة التي لبث فيها عابداً متبتلاً . .

على سفح الجبل كان رجل خائف مضطرب ، يسمع هزيم الرعد ، وصفير الريح ، وتكسر الأغصان ، وتدحرج الصخور ، فيزداد خوفه ، ويسير بكل ما أوتي جسمه الكبير من قوة محاولاً تسلق الجبل . . لم يستطع الاهتداء في تلك الليلة الهائجة إلى الطريق المعبد للصعود ، فأخذ يتشبث برؤوس الصخور الناتئة ، مثبتاً بيديه القويتين ثم يندفع بجسمه الكبير في قافزاً كالوحش الذي فقد صوابه .

كان رجلاً طويلاً ضخماً ، كأنه قطعة قدّت من جبل ،وكانت عيونه الواسعة المتقدة ، تنظر إلى ما يحيط بها ، كان يتمتع بحذر الفأر وإحساس القط وشراسة النمر . .

تأوّه بحرقة وهو يدفع غصن الشجرة الصغيرة التي ضربته ، ووقف في مكانه ينظر إلى الصومعة التي ظنها في متناول اليد ،

وأنه سيصل إليها في لحظات ، وها هو قدأنهكه التعب ، واستبدّ به القلق ، ولـمّا يصل إلى نصف المسافة التي قدّرها . .

وترامى إلى سـمعه نبـاح الكـلاب فـي القريـة . . والتفـت ينظر إليها ، فأدرك بأن حركة غير عادية قـد اجتاحتـها ، وخيـل إليه أن مجموعة من اللصوص قد داهمتها .

وعاد مرة أخرى يستأنف تسلقه في جهد ومشقة ، وكـانت الريح قد اشتدت أكثر ، وأقبل مـن جهـة الأفـق الغربـي الـذي يُرى من فجوة انحدار جبلين شاهقين ، حشد هـائل مـن الغيـوم الثقيلة السوداء ، كان البرق يسوقها فتصـرخ متألمة تتلوى تحـت ضرباته .

واستمر الرجل في تسلقه حتى إذا صار من الصومعة علـى بعد خطوات ، وقف يسترد أنفاسه ، ويتطلع إلى الباب الخشـبي الواهـن الـذي يتسـلل مـن بـين شـقوقه بصيـص مـن الضـوء الخافت ، و المكان محاط بسكينة ورهبة . .

أرهـف أذنيـه لعلـه يسـمع شـيئاً . . حركـة . . همسـاً ، أي شيء يدل على وجـود أحـد داخـل الصومعـة لـم يسـمع شـيئاً فتقدم بملابسه المبللة ، وجسمه الكبير الثقيل ودفع الباب .

ونظر إلى الكهف الذي اتخذه الراهب صومعة يتعبد فيها ، فرأى النار ترسل ألسنتها إلى علو قليل ، والقنديل يرسل ضـوءاً

خافتاً ، يظهر جدران الكهف وقد عني بـها حتـى عـادت تشـبه جدران الغرف القديمة .

وتطلع الرجل إلى الصومعة ، وقد غمرته روحانية ورهبة لـم يعهدهما في حياته ، ورأى الراهب قد افترش حصيرته وراح في سجدة طويلة ، واستطاع أن يسمع صوته يدعو الله في سجوده ، فامتلأ قلبه رهبة .

لقد سـمع عـن الراهـب مـن أفواه النـاس قصصـاً كثـيرة عدّهـا خيالية ، أو من قبيل المبالغة . . وها هو الآن يقف أمـام الرجـل الـذي انقطع إلى ربه ، وترك دنياه وراء ظهره ، إنه يريد أن يفوز برضاء الله ، أن يفوز بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

ولقد وصل أخيراً ، ووجد ضالته ، فلينظر . .

هل يستطيع الراهب أن يقدم حلاً لمشكلته؟ . .

تنحنح بخشونة ، وهو يجيل بصره في المكـان ، فـإذا بـه لا يحتـوي إلا علـى فـراش بسـيط . . وعصـا . . وبعـض الأنيـة للطعام ، وإبريق من الفخار . .!

ظلَّ الراهب في صلاته موصولاً بالله تعالى ، خاشـعاً بـين يديه ، لـم يحس بدخول الرجل ، ولم يسمع نحنحته ، لأن قلبـه مشغول بذكر الله ، وهكذا تكون صلاة الخاشعين . .

ولما انتهى من صلاته . . والتفت إلى الجهة التي كان فيها الرجل ، فوقع بصره عليه . . نظر إلى قدميه الفولاذيتين ، وجسمه الضخم الذي ملأ المكان ، وملابسه التي يقطر منها الماء ، وأكتافه العريضة ، ورأسه الكبير ، ولحيته الكثة ، وعينيه الواسعتين . .

والتقت العيون ، عينا الراهب اللتان غسلتهما الدموع وأذبلتهما العبادة وطول السهر والتهجد ، وعينا الرجل الكبير الضخم الصارخة المتوحشة .

وفتململ الراهب مبتسماً ومرحّباً ، وأشار بيده يدعوه إلى الجلوس :

ـ تفضل .

ثم التفت إلى صرّة في ناحية من الكهف وقال :

ـ سأقدم لك طعاماً .

وتقدم الرجل خطوة وهو يقول :

ـ لا أريد طعاماً . .

ثم انحنى أمامه وأضاف بصوت متهدّج :

ـ أريد أن أتوب . .

قال الراهب ، وقد أطرق برأسه ينظر إلى النار في الموقد :

ـ ومن الذي يمنعك من التوبة؟

وعاد بنفس الصوت المتهدج :

ـ ولكني مذنب . .

قال الراهب :

ـ كلنا مذنبون يا بني .

وجثى الرجل على ركبتيه ، وقال بصوت تخنقه العبرات :

ـ إن ذنبي عظيم . . إنني مجرم ، وأخاف أن أموت فألقى في النار .

وتصور الراهب ألسنة اللهيب ترتفع إلى عنان السماء ، وأفواج المعذبين يقذفون في النار ، وهم يصطرخون فيها ويبكون . . فغطى وجهه بكفيه ، وراح يبكي . .

ولما سمع الرجل نشيجه قال :

ـ أنت تبكي . . أنت الرجل العابد الذي قضيت عمرك في العبادة تبكي؟!

فكفكف دموعه وقال :

ـ والله إنها لموعظة .!

وعاد الرجل يتوسل :

ـ قلت لك إنني مذنب ، وأريد أن أتوب . . فهل لي من توبة؟

رفع الراهب يده وقال :

ـ إن باب التوبة مفتوح يا بني .

ثم انصرف إلى أدعيته ، يسبح الله بصوت أشبه بالهمس .

كان وجهه نحيفاً مضيئاً ، تنعكس أشعة اللهب عليه فتزيده روعة ومهابة ، وكانت لحيته التي أتى عليها الشيب ، تحيط بوجهه ، وتتدلى قليلاً عند ذقنه .

أرسل الرجل زفرة حارة وهو يقول :

ـ إنك لا تستطيع أن تتصور عظم الذنوب التي تراكمت على قلبي . . إنك لا تدري كم عانيت حتى دلوني عليك ، و وصلت إليك . إن ذنوبي تلاحقني . . تكاد تخنقني . . إنني أشعر كأن الدنيا كلها بأرضها ، بسمائها حتى الرعد القاصف يصرخ بي : أنت مجرم .

سكت الرجل قليلاً ، وقد أخذ صدره العريض يعلو ويهبط ، ودوّي الرعد يهز الجبال وصفير الرياح يثقب الآذان ، والصخور الصغيرة تتدحرج ، والمطر ينسكب كأفواه القرب . .

بقي الراهب ينظر إلى الرجل دون أن يجيبه . . أما هو ، فقد عاد إلى توسله قائلاً :

ـ سأقص عليك قصة حياتي . . إنني . .

ورفع الراهب يده يشير عليه بأن يسكت :

ـ لا . . لا أريد أن تذكر لي شيئاً . . إنها أمور بينك وبين ربك . . هو يقبل التوبة من عباده .

ضرب الرجل على رأسه بكفيه الضخمتين ، وقال بصوت غاضب عالٍ :

ـ لا أستطيع . . لا أستطيع . .

إن لي ماضياً سودته الجرائم . . أريد عرضه عليك لأعرف هل لي من توبة أم لا؟

ثم نظر إلى الراهب وقد تغير لونه ، وتهدج صوته ، وقال وهو يرفع يده في وجهه :

ـ أتدري من أنا؟ . . أتدري من الذي يكلمك؟ . . إنني قاتل . . لقد قتلت تسعة وتسعين نفساً . . فهل لي من توبة؟!!

***

ذعر الراهب وهو ينظر إلى وجه الرجل الغريب ، وكأنه ينظر إلى وجه الشيطان ، بل كأنه ينظر إلى الشيطان نفسه ، وتراجع إلى الوراء ثم نهض ولصق ظهره بجدار الكهف ، وأخذ يردد :

ـ أنت قاتل . .

وكان الرجل جاثياً مكانه ، وقد رفع يديه فوق اللهب يستمد بعض الدفء ، وأخذ الراهب ينظر إلى يديه اللتين بدتا له بلون الدم .

ـ أنت قاتل . .

وهتف الرجل :

ـ ألم أقل لك اسمع قصتي . .؟

فهزّ الراهب يده وهو يقول :

ـ لا . . لا أريد أن أسمع قصتك . . فأنت مجرم . .

أنت قاتل . . كيف تريد أن يغفر الله لك؟!!

ونفذ صبر الرجل وصرخ غاضباً :

ـ أريد أن أتوب .

وأشار الراهب بيده :

ـ أخرج من هنا . . اخرج . . أي توبة هـذه التـي تستطيع أن تكفر عن ذنبك . . تغسل خطيئتك . .

اخرج . . لا أريد أن أراك ، فأنت مجرم .!

اشـتد غضـب الرجـل ، وتحـول إلـى كتلـة مـن القسـوة والوحشية ، ورفع جسمه الكبير ، ونهض وهو يقول :

ـ لقد قتلت تسعة وتسعين نفساً . .

وتصور الراهب كومة من الجثث يجري من تحتها بحر من الدماء ، والرجل الغريـب واقفاً شـاهراً سيفه ، متعطشاً إلـى المزيد . .

فصرخ الراهب :

ـ اخرج . . لا تدنس صومعتي بأقدامك ، لا تلوث هوائـي بأنفاسك . . اخرج من هنا فأنت شيطان .

ثم هجم عليه يدفعه بكل مـا أوتـي جسـمه النحيـف مـن قوة ، بينما وقف الرجـل الضخـم كـالصخرة العنيـدة لا يتحـرك وابتسـامة الحـزن واليـأس والمـرارة ترتسـم علـى وجهـه بشـكل كريه . .

ثم قال بصوت كأنه حشرجة الموتى :

ـ أما وقد أغلقت في وجـهي بـاب التوبـة ، فسـأكمل بـك المائة .

وأطبق الرجل يديه الفولاذيتين على عنق الراهب ، وضغط عليها بكل قوته المتمردة ، وأحس بشيء يتحطم تحت أصابعه . .

كانت يد الراهب تتشبث بصدر الرجل وساعده ، فأخذ يرفس برجله ، وقاوم لحظات ثم رجف جسمه النحيل رجفة أخيرة ، وتخاذلت يداه إلى جانبه بعد أن جحظت عيناه ، وتحول وجهه إلى ما يشبه الدم .

ضربت الرياح باب الكهف ، وارتفعت ألسنة اللهب ، وسقطت العكازة المعلقة على الجدار ، وسقط الراهب على وجهه فوق الحصيرة مرتطماً بموضع سجوده ، ومرت بجسمه رجفة خفيفة ، ثم خمد .

ارتفع صوت الرعد غاضباً مزمجراً ، وصفّرت الريح ، وهُيء له أنه يسمع صوتاً من بعيد ، صوت رجل يستغيث . .

وأخذ يفكر في نفسه . . أين سمع هذا الصوت؟ ومتى سمعه؟ونظر إلى الراهب الذي فارق الحياة ، وتلفت في أرجاء المكان ، فإذا كل شيء عابس متجهم ، حتى النار في الموقد بدأت تخمد وأدار ظهره ، وخرج من الكهف ، ورفع رأسه ينظر إلى السماء المزدحمة بالغيوم الرمادية الداكنة ، وقد حاول القمر جاهداً أن يطل بوجهه ، فإذا بها تطبق عليه وتخنقه فلا يبدو

منه شـــيء وضرب البرق بســوطه ظهرها ، فـرأى الرجـل علـى ضوئه قمم الجبال الهائلة ترتفع بشكل رهيب ، وتبع البرق رعـد قاصف ورياح شديدة ، وبـدت لـه قمـم الجبـال كأنـها عفـاريت ضخمة تقطع عليه الطريـق ، فشـعر بخـوف مفـاجئ مـن ذلـك النوع الذي ينشب مخالبه في كل ذرة من جسم الإنسان ، فـلا يدع له مجالاً للتفكير . .

شعر كأن الأرض والسماء والغيوم والأحجار . .

كأن كل ما يحيط به . . حتـى الأشـجار الصغـيرة تصـرخ به :

ـ قاتل . . مجرم . .

تمنى لو طلع النهار . . لو استطاع القمر أن يمد رأسه من بين الغيوم . . لو لاح له ضوء . . أي ضوء . .

وأخذ يهبط من الجبل متعثراً ، والرياح تصفّـر فـي وجهـه ، والصخور الناتئة تنتاش جسمه ، ثـم فقـد توازنـه فتدحـرج . . لكنه استطاع أن يتشبث بصخرة كبيرة منعته من أن يهوي إلـى سفح الجبل!

لم يشعر في يوم من أيام جرائمه السابقة بمثل هذا الخوف ، هـذا الخـوف القـاتل الـذي شـلّ تفكـيره ، ولكـن . . لمـاذا هـذا الخوف؟

وأراد أن يعيد الثقة إلى نفسه ، وأن يذكّر نفسه بمواقفه البطولية ، بجرأته الفائقة .

لكنه تخيّل كأن المكان قد امتلأ بالرهبان ، والراهب الشهيد محمول على خشبة فوق رؤوسهم ، وهم متجهون نحوه . .

كانت مسيرة صامتة . .

فغطى وجهه بكفيه الضخمتين ، وأغمض عينيه ، ثم ضرب رأسه بالجذر بقوة ، متضايق من شعوره بالضعف ، ويبدو أن الألم قد أعاد له بعض صوابه ، فأخذ يفكر في هدوء :

إنه لم يقتل الراهب . .

إن الراهب لم يمت . .

إنه لا يزال حياً . .

لقد تركه هناك قرب النار ، فليعد إليه ، ويسأله هل له من توبة؟

ولشدة ما كانت دهشته عندما وجد الطريق المعبد الموصل إلى الصومعة إلى جانبه ، فقويت همته ، وازداد عزمه على العودة إلى الصومعة ، فأخذ طريقه إليها . .

حتى إذا وصل إلى الباب المفتوح ، وقف قليلاً قبل أن يلقي بنظره إلى الداخل .

وأخذ يفكر . .

ماذا سيقول للراهب إذا وجده حياً؟

سيقول إنها ساعة جنون لم يتمالك فيها أعصابه ، وإن الراهب الطيب القلب سيقبل عذره .

لكن ماذا لو وجده ميتاً؟

استبعد هذه الفكرة من رأسه . .وقام في نفسه ما يشبه اليقين بأن الراهب حي . . يكاد يسمع صوته ، ربما عاد إلى صلاته . .

سيتأكد من هذا بنفسه . .

فدخل الكهف . .

ورأى الراهب ممداً لا يبدي حراكاً .

فانحنى إليه .

كانت النار في الموقد قد خمدت إلا بقية من لهب ضئيل يضيء قليلاً ، وقنديل الزيت يلفظ أنفاسه والعكازة ملقاة ، والراهب منكفئ على وجهه فوق الحصيرة في موضع السجود . .

قلّبه برفق . .

ونظر إلى وجهه . .

رأى ابتسامة مطمئنة تغمر وجهه بنور هادئ . .

رأى وجه الراهب قد عاد مضيئاً لطيفاً كما رآه أول مرة . .

مظنّه حياً . .

فقال يستعطفه :

ـ سيدي الراهب . . اغفر لي . .

ووضع يده على صدره ، ثم انحنى عليه ووضع أذنه اليمنى على موضع قلبه . .فلم يسمع شيئاً . .

إن الراهب قد فارق الحياة . .

وعاد مرة أخرى يسمع ذلك الصوت ، صوت الرجل الذي يستغيث ، وعاد يسأل نفسه : أين سمع هذا الصوت؟

وبدلاً من أن يشعر بالخوف ، أحس بالهدوء والسكينة ، بدرجة لم يشعر بمثلها في حياته . .

ونزلت دمعة ساخنة على خده ، وانحنى يقبّل الراهب من رأسه . .

ثم تلفت في أرجاء المكان المظلم إلا من بصيص منبعث من القنديل ، فوجد قطعة قماش مهلهلة ، فنشرها على الراهب ، ونهض وهو يحدّث نفسه ، كيف اعتدى على الرجل الذي كان يرجو على يديه التوبة؟

وقف على باب الكهف ، فإذا الرياح قد هدأت ، والسماء بدأت ترسل زخة خفيفة من المطر . .

فأخذ الطريق المعبد ، ومضى يهبط بهدوء وقد ازدحمت في رأسه دوامة من الأفكار ، حتى إذا وصل إلى سفح الجبل وقف هنيهة . . وأدار ظهره ، ينظر إلى الصومعة ، وبقي لحظات ينظر إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته .

خُيّل إليه كأن الغيوم أخذت تهبط على الكهف ، وأرتالاً من الملائكة تحمل روح الراهب الشهيد وتصعد بها إلى السماء ، ونظرات ساخطة تأتيه من كل مكان .

دبّ الرّعب في نفسه من جديد ، وتلفّت حوله ، وهُيء له كأن قمم الجبال تريد أن تطبق عليه . .

فاندفع يركض صوب القرية ، وتعثر في طريقه . . كان يعدو بعنف وقوة . .

كان يود لو طار إلى القرية . .

لو استطاع أن يطير كما يطير في الأحلام عندما يداهمه خطر!! كان يشعر بشيء يلاحقه . .

بوقع أقدام ثقيلة مع أصوات مختلطة لا يفهم منها شيئاً .

إنه لا يريد أن يلتفت . .

ولا يريد أن يقف . .

ولا يريد أن يموت . .

كان يشعر كأن الشيء الكبير الثقيل الرهيب الذي يلاحقه سوف يمسك به لا محالة . .

فازداد قوة في اندفاعه وركضه ، وأصبح من القرية على مرمى العصا .

ها هي أنوار البيوت تتلألأ من خلال النوافذ . .

ولكن هدوءاً مقيتاً خيّم عليها وأخرسها . .

حتى الكلاب لم تعد تنبح . .

كان يريد أن يستأنس بأي شيء . . أي شيء يعيد إليه نفسه!

أراد أن يصرخ . .

أن يستنجد . .

حتى الصوت قد جفّ في حلقه فلم يعد يستطيع أن يصيح ، وتمنى لو أن جيشاً من الكلاب هجم عليه ، إذن لارتاح إلى نباحها . .

ولكن . . .

***

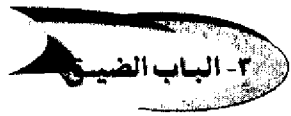


استمرت السيول تجري نتيجة الأمطار التي سقطت ، وعاد المطر خفيفاً لطيفاً ينزل برفق بالغ ، والغيوم السوداء الداكنة ذهبت مع الريح إلى مكان بعيد ، وحلّت مكانها غيوم بيضاء نقية .

كانت بيوت القرية تنحدر على سفح الجبل ، والظلام مخيّماً عليها ، إلا قليلاً من الضوء تسمح به بعض النوافذ والأبواب ، وقد نشرت الغيوم البيض غلالة رقيقة على وجه القمر ، لم تستطع أن تحجب جماله وروعته ، وفي هذه الأثناء لم يُسمع إلا وقع أقدامه الثقيلة وهو يعدو والأرض ((تهش)) من تحته .

كان الخوف يسيطر عليه وهو يندفع نحو أقرب بيت وصله في القرية ، وألقى بنفسه على الباب وهو يلهث والعرق يختلط بقطرات الماء الساقطة على وجهه وجسمه الكبير .

طرق الباب بقبضة يده ، ودَّ لو وجده مفتوحاً ، كان يريد أن يتمتع بشيء من الأمن والطمأنينة ، وعاود الطرق ، فسمع صوت المزلاج يرفع ثم يفتح الباب بصرير مزعج . .

وظهر رجل قصير بدين صغير العينين . . وما أن رآه على تلك الحالة ، وصعدت إلى أنفه رائحته الكريهة حتى اختفى وراء الباب وأغلقه بسرعة وثبّت المزلاج وراءه .

وسمع حركة أقدام وأشياء كثيرة تكوَّم وراء الباب .

تراجع عن الباب وهو يشعر بالحقد والكراهية ، واندفع يلقي بجسمه الكبير الثقيل عليه فلم يفلح في زعزعته . . ثم أخذ يضرب بقبضة يده ويصرخ كالوحش المهان :

ـ افتح الباب . . افتح!

وهجمت عليه الكلاب تحيط به وهي تنبح . .

واستيقظت القرية كلها ، ودبّت الحركة داخل البيت ، وأضيئت بعض المصابيح ، وحملقت عيون تنظر من خلال النوافذ وشقوق الأبواب ، إلا باباً واحداً لم يفتح ، وظلت جميعها مغلقة .

فعادت إليه وحشيته ، وذهب ما به من خوف ، وأخذ يرفس الكلاب وكأنه يقاتلها ، فهربت مذعورة ، ووقفت تنبح عليه من بعيد .

سار وهو يضرب الأبواب بقدمه ، ثم رفع يديه وصرخ بصوت كقصف الرعد :

ـ سأحطمكم كلكم . . سأهدم عليكم بيوتكم .

واندفع كالثور الهائج ، وقد تفجر في نفسه بركان من السخط والثورة . .

ولم يجرؤ كلب واحد على الاقتراب منه!

كان منظره يثير الرعب في أقوى القلوب جلادة .

كان يريد أن يحطم هذه الأبواب .

أن يهدم البيوت على رؤوس أصحابها .

أن يحرق القرية بمن فيها .

كان في سيره يتلفت نحو البيوت التي عادت تطفئ أنوارها وتحكم غلق أبوابها ، ومن وراء النوافذ تنظر إليه عيون لأشخاص متلصصة وهي تحبس أنفاسها .

لقد أثاره هذا الجو الذي خيم على القرية ، وزاد في عنفه وثورته ، والكلاب تتبعه ولا تكف عن النباح ، وصوت أقدامه الثقيلة وهي تترك أثراً غائراً في الأرض .

وقعت عيناه على باب انفرج عن فتحة صغيرة . . فنظر إليه بارتياح ، وتنهّد ، وتقدم نحوه وقد عزم على اقتحامه والبطش بكل من في الدار .

. . واقترب من الباب بحذر ، وكأنه يخشى أن يغلق في وجهه فتفوته الفرصة ، وألقى بجسمه الثقيل عليه ، فانفتح بقوة ، وارتطم بالجدار . . ووجد نفسه يقف داخل البيت!

ومضى يجول ببصره متعطشاً إلى البطش ، ليطفئ النار المتأججة في نفسه .

وقف بجسمه الكبير وشعره المنفوش ولحيته الكثة . . ونظر . .

فإذا بطفلة تهرع إليه وهي تقول :

ـ إن أمي تعاني من آلام الوضع . . هل تستطيع أن تأتي بالقابلة؟

وتكسرت أمواج ثورته العاتية على ساحل عينيها العسليتين اللامعتين . .

وبقي في مكانه لا يتحرك . . بينما راحت الصغيرة تستحثه بقولها :

ـ بالله عليك . . إن أمي ستموت . . ألا تريد أن يغفر الله لك؟

ـ بلى أريد . .

ـ ألا تريد أن يغفر الله لك؟ . .

ـ والله أريد . . ولكن . . هل يغفر الله لي؟!

وعاد إلى سمعه مرة أخرى ، صوت الرجل يستغيث .

أين سمع هذا الصوت؟ ومتى سمعه؟

وترامى إلى سمعه صوت المرأة تصرخ من الألم ، فكاد قلبه يتمزق ، ووقف متحيراً ، ثم تراخى في وقفته ، وجلس مستنداً إلى الجدار .

وعادت الصغيرة تضع يدها على كتفه وتقول له بكل رقة ولطف ووداعة :

ـ هل أنت جائع؟

ثم ركضت برجليها الصغيرتين ، وسمعها تخاطب أمها وتقول :

ـ لقد حلّ عندنا ضيف . . وسيذهب لاستدعاء القابلة .

لم يعد يسمع صوت الكلاب التي كانت تثيره وتزعجه ، ولم يعد يسمع صوت الرجل يستغيث ، ولكنه سمع بعضهم يتهامسون :

ـ أين ذهب الغريب؟!

وعادت الصغيرة تحمل بيدها إناء لبن ورغيفاً من الخبز وضعتهما أمامه وهي تقول :

ـ هل تريد أن تأكل قبل أن تأتي بالقابلة؟

ثم انحنت تمسح أنفها بطرف ثوبها ، ورفعت رأسها وقد توردت أرنبة أنفها وقالت :

ـ لماذا لا تأكل؟

كان صوت المرأة المتألمة يمزق قلبه كلما أخذت تصرخ أو تستنجد ، كانت تحاول أن تحبس صوتها دون جدوى .

كان ينظر إلى قنديل الزيت الذي يرسل ضوءاً خافتاً ، والأثاث البسيط الذي يحتويه البيت ، والقطة السوداء التي وقفت تنظر إلى الطعام وهي تهز ذيلها وتموء . . والصغيرة التي تستحثه بنظراتها المتوسلة .

وانحنى على إناء اللبن فرفعه إلى فمه وشربه دفعة واحدة ، ثم مسح فمه بطرف كمه وقال :

ـ ولكن لا أدري أين يقع بيتها؟

قالت وهي تسحبه من يده مستحثة له على النهوض :

ـ أنا أذهب معك .

وطارت إلى أمها تقول :

ـ سأذهب مع ضيفنا لاستدعاء القابلة .

وعادت إليه ، فرأته ينتظرها .

فاحتوت يده الكبيرة الضخمة يدها الصغيرة الناعمة ، وسار معها وهو يشعر بالهدوء والسكينة ، وبشيء يغمر قلبه ويشعره بارتياح لذيذ . .

كان المطر قد انقطع تماماً ، وتناثرت السحب تطرز ثوب السماء ، وبرز القمر ضاحكاً منتعشاً يرسل نوره الفضي فيغمر الكون .

ومضت الطفلة تسير معه وهي تزقزق بحكايات لطيفة ، وتشير بيدها إلى بعض البيوت ، وتقص عليه كيف سرق بعض الأطفال دميتها المصنوعة من الصوف .

وكانت تفر من يده لتشير إلى مكان معين وتقول :

ـ هنا كنا نلعب . . هنا سقطت دميتي . . هنا . . هنا .

كان يستمع إليها ويود لو شاركها مرحها ، يود لو كانت له طفلة جميلة صغيرة مثل هذه . . بلون شعرها . . بصفاء عينيها . . بـ . .

ولم يشعر إلا وهي تقول له :

ـ ها قد وصلنا . . هذا بيت القابلة .

نظر . .

فإذا بها تشير إلى البيت الذي حاول اقتحامه أول مرة فأغلق الباب في وجهه .

فانحنى يمسح رأسها بكل ما أوتي قلبه المكدود من حنان ، وقال بصوت اجتهد أن يكون خافتاً :

ـ اذهبي وحدك . . سأنتظرك هنا .

ركضت الصغيرة إلى الباب ، تدقه ، وتصيح . .

فانفتح الباب قليلاً ، وأطل رأس الرجل البدين وهو يقول :

ـ ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟

قالت :

ـ إن أمي تلد . . وتريد أن تأتي زوجتك لتساعدها .

نظر إليها متحيراً ، وكانت زوجته تقف وراءه .

ـ ولكن كيف وصلت إلى هنا؟

لقد كان في القرية رجل شرير أراد أن يقتحم علينا بيتنا! هل رأيته؟

هزت رأسها وهي تقول ببراءة الطفل الوديع :

ـ كلا لم أره . . إن أمي تعاني من آلام الوضع . . إنها تلد .

وعاد الرجل يقول :

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

قالت وهي تشير إلى الناحية التي وقف فيها رفيقها :

ـ معي ضيفنا وهو الذي أوصلني . . إنه رجل طيب .

ارتاح زوج القابلة إلى كلامها ، والتفت إلى زوجته يقول :

ـ أرى أن تذهبي معها .

وما هي إلا لحظات حتى خرجت القابلة تلم أذيالها من الوحل . . وأقبلت الصغيرة معها وهي تشير بيدها وتقول :

ـ إن ضيفنا رجل طيب ، وهو الذي ساعدني على المجيء في هذه الساعة من الليل .

سألت القابلة :

ـ وأين هو؟

فأشارت بيدها إلى ناحيته .

والتفتت القابلة تنظر إليه . . وما أن رأته حتى صرخت وعادت مذعورة تتعثر بأذيالها ، وأخذت تضرب على الباب مستحثة زوجها على فتحه بسرعة .

ففتح الباب ، ودخلت البيت وأغلقت الباب ، وراحت تكوم وراءه قطعا من الأثاث والحجر والأخشاب .

لم تفهم الصغيرة سرّ هذا الأمر ووقفت متحيرة وهي تقول :

ـ لماذا هربت؟

فهز رأسه وهو يجيب بصوت اجتهد أن يكون هادئاً قدر الإمكان ، وقال :

ـ لعلها رأت شيئاً .

وتلفتت الصغيرة حولها ثم قالت :

ـ ولكنك معنا؟

وأرادت أن تعود إليها . . ولكنه جذبها من يدها برفق وقال :

ـ لا تتعبي نفسك . . إنها لا تريد أن تأتي .

ورضخت الصغيرة وعادت ، وهي لا تدري شيئاً مما حدث ، لا تدري لماذا هربت القابلة .

ورفعت رأسها إلى السماء ، وقالت بكل ما في قلبها الصغير من طهر وبراءة وألم :

ماذا نعمل يا ربي . .

ووقع نور القمر على وجهها الصغير فأضاءه ، واستطاع الرجل أن يرى شعرها الذهبي يلمع ، ووجهها الجميل الذي تبدو عليه معالم الاستغاثة والتوجه إلى الله ، وأحسّ في قرارة نفسه ، أن الله لا يتخلى عن هذه الطفلة البريئة الوديعة الطيبة .

واحتضنت يده يدها ، وعاد وهو يبكي في نفسه على نفسه ، لماذا يهرب منه الناس؟

وعندما وصلت الصغيرة إلى البيت تركت يده وركضت لتخبر أمها . . وكم كانت دهشته عندما عادت بنفس السرعة التي ذهبت بها وهي تصيح جذلاً :

ـ لقد وضعت أمي طفلاً .

وابتسم وهو يرفع رأسه إلى السماء . . ما أسرع ما استجاب الله دعاءها .

وتمتم بصوت خفيض :

ـ الحمد لله .

ثم ألقى بجسمه الكبير في زاوية من البيت ، وسمع صوت امرأة عجوز تدفع الباب وهي تقول :

ـ ماذا حدث؟

وقفزت الصغيرة فرحاً :

ـ لقد وضعت أمي طفلاً .

وسمع صراخ الطفل .

فتحت صفحة جديدة في سجل الزمن ، لطفل ولد في ليلة ممطرة ، وحدث داهم القرية ، وغريب مخيف حلّ فيها . .

وتمدد مكانه بعد أن سحب وسادة وضعها تحت رأسه ، وراح في نوم ثقيل .

كان يشعر أن باب التوبة باب ضيق لا يدخله كل إنسان ، وأن هذا الباب قد أغلق في وجهه إلى الأبد .

ولكن الطفلة أيقظت في نفسه بارقةً من الأمل جعلته يشعر أن باب التوبة قد انفرج عن فتحة صغيرة يستطيع ولوجها إذا عرف الطريق إليها . . ولكن . .

من الذي يهديه إلى الطريق؟!!

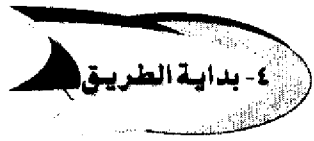


ألقت الصغيرة نفسها على فراشها البسيط ، وطارت بروحها اللطيفة إلى عالم الأحلام ، وبقيت العجوز تعتنّي بالطفل إلى جانب أمه التي أنهكتها الولادة ، فاسترخت بجسمها المهدود لكي تتمتع بقسط من الراحة ، و تسرق لحظات من النوم عندما تكف العجوز عن ثرثرتها التي لم تنقطع طوال المدة التي لبثت فيها .

كانت ثرثرتها من النوع اللطيف المحبب إلى الأمهات فقد تحدثت عن الطفل وعندما يصبح رجلاً قوياً مهاباً محارباً . . وتخيلت الأم ذلك اليوم ، وتمنت لو أن الله العلي القدير حقق مرادها .

التفتت العجوز تسأل الأم :

ـ من هذا الرجل النائم قرب الباب؟

فتنهدت الأم وقالت :

ـ ألم يذهب بعد؟ لقد أتعبناه الليلة .

وسحبت الغطاء قليلاً ثم أضافت :

ـ إنه ضيف غريب ، ذهب مع الصغيرة إلى القابلة فرفضت أن تجيء .

وضربت العجوز بيدها على صدرها وقالت في دهشة وتعجب :

- رفضت . . لماذا؟!

تململت الأم في فراشها وقالت :

- لا أدري .

ورفعت العجوز يدها هرشت رأسها بأطراف أناملها وهي تقول :

- إنه يبدو متعباً .

- إنني لم أره بعد . . لم أستطع أن أغادر حجرتي .

ونهضت العجوز تطل برأسها من باب الحجرة وهي تنظر إليه بعينيها الذابلتين وأنفها المعروق الذي انتشرت على جوانبه شعرات تشبه شارب القط .

- إنه نائم . . إنه ينام نوماً ثقيلاً . . يبدو وكأنه ينوء تحت حمل ثقيل .

ثم وجهت الخطاب إلى الأم وهي تقول :

- إن لهذا الرجل قصة ، سيحدثنا بها عندما يستيقظ .

فابتسمت المرأة وقالت :

- وما يدريك أنه سيتحدث؟

فأجابت دون أن تلتفت :

ـ إن السر الذي يكمن في صدره ، قد وصل حداً لا يطيق البقـاء في سجنه .

وارتفع صراخ الطفل يشق هدوء الليل ، وهرعت العجوز تسـكته وكأنها تحتج :

ـ لا . . لا تبكِ . . لم يبزغ الفجـر بعـد ، مـهلاً مـهلاً . . سوف ينتظرك الأولاد ولا يغادرون القرية قبل حضورك . . قلت لك لا تبكِ . . إنهم هناك . . ستذهب معهم إلى المرعى .

وابتسمت الأم ابتسامة مريحة هادئة .

أين أبوه الآن ، . . لقد ذهب إلى المدينة قبل أيام ، ذهـب ليبيـع بعض الحبوب ، وليجلب مـن هنـاك ثوباً للبنـت ، وبعـض حاجـات للمنزل .

هل يدري أن الله رزقه ولداً؟

إنها تتذكر تلك الليلة التي بقي فيها سـاهراً طـول الليـل ، رافعـاً يديه إلى السـماء ، متضرعـاً إلـى اللـه ، ممرغـاً وجهـه أحيانـاً ، سـائلاً الرب ، رب السماوات والأرض ، أن يهب له ولـداً ذكـراً يعينـه على نوائب الدهر .

لقد شعرت المرأة . . بل أيقنت ، أن اللـه اسـتجاب دعـاءه . . ((أم من يجيب المضطر إذا دعاه؟؟))

وانتقلت بأحلامها إلى ذلك اليوم ، الذي سيقف فيه ولدها . . طويلاً ، قوياً ، رائعاً ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، أقنى الأنف . .

ورفعت يدها تتلمس أنفه ، علّه يكون مثل أنفها . .

سيقول لها بلهجة أبيه القوية المحببة :

ـ أسرعي يا أمي . . أين الطعام؟ فإني أريد أن ألحق بأصحابي إلى المرعى ، إلى وراء الجبال .

وارتفع صوت الرجل يسعل بشدة ، وسكت الطفل .

وأسرعت العجوز تخرج من الحجرة وتقول :

ـ قد أيقظك رب البيت . . أليس كذلك؟

نظر إليها الرجل بعينين منتفختي الأجفان ، واعتدل في جلسته وقال :

ـ وأين هو رب البيت . . إنني لم أره .

فأشارت بيدها ، وكأنها تحتج :

ـ لا . . لا تنكر . . ألم تسمع صوته قبل قليل؟

فابتسم ابتسامة ملأت وجهه وقال :

ـ أرجو الله أن يجعله من أبناء السلامة .

وجلست العجوز ، ثم تدنت ، ولمّت أذيالها ، حتى أصبحت قريباً منه وقالت :

ـ إني أرى في أعماقك شيئاً يريد أن يخرج . .

وأراد أن يتكلم ، ولكنها مضت في حديثها وهي تشير بيدها أن يسكت :

ـ لا . . لا . . أعني أن شيئاً . . سراً يكمن بين جنبيك يريد أن يخرج ، أن يشق طريقه نحو النور. . .لقد مضت عليه مدة لم يعد يطيقها . . لقد ضاق بك . . وضقت به .

فلا هو يستطيع أن يخرج ، لأنك أحكمت غلق صدرك عليه ، ولا تستطيع أن تخرجه لأنك ضيعت المفتاح .

وتركته ينظر إليها مشدوهاً ، ثم نهضت تفتح الباب ، وتنظر إلى الأفق البعيد ، ثم تمتمت ، وكأنها تخاطب نفسها :

ـ ها هو الفجر قد مدَّ يده ليمسح عن وجه الكون ظلام الليل .

تنهد الرجل وهو يعصر صدره بيده :

ـ أريد أن أتوب . .

إن قلبي يحترق ، إنني أشعر كأن ذنوبي قد تحولت إلى جبل عظيم ، وإنني كلما ارتكبت ذنباً كلما ازداد الجبل هولاً .

إنها تريد أن تنقضّ عليّ تريد ،أن تهدمني . .

إنني أشعر كأن كل حفرة أمرّ بها تريد أن تبتلعني ، أن تذهب بي إلى الجحيم . .

أقبلت العجوز تقاطعه بإشارة من يدها الذابلة :

ـ لا . . لا تيأس . . إن رحمة الله قريب من المحسنين .

ـ ولكنني مذنب .

نظرت إليه نظرة قاسية ، كأنها تؤدب طفلاً كبيراً ارتكب حماقة منكرة ، وقالت :

ـ كيف تقول هذا؟ . . إنه ليس مع التوبة ذنب .

إن ربنا غفور رحيم .

شعر بكلماتها تنزل على قلبه المضطرب ، كقطرات الماء البارد في صيف ملتهب . . وقال وهو يميل برأسه إليها :

ـ أريد أن أسأل رجلاً عالماً . . أعلم أهل الأرض . . أسأله هل لي من توبة؟

أكاد أجن . .

إنني أشعر كأن جمرة من نار جهنم قد استقرّت بين ضلوعي ، فلا تكاد تخبو حتى تثور وتلتهب وتحرقني . .

سكت قليلاً ، وقد وضع يده اليمنى على قلبه وعاد يقول :

ـ إنني أحترق .

إنني أشعر كأن كل ذنب ارتكبته قد تحول إلى جمرة ، حتى الأرض التي أسير عليها أشعر بحرارتها ، إنني لا أستطيع الهروب من الله . . لا أستطيع الهروب من الله إلا إليه .

ضربت العجوز بكفها الذابلة على كتفه وقالت مبشرة :

ـ إن كلامك هذا ، هو أول التوبة . . إنه بداية الطريق إلى الله .

فلا ترجع يا بني . . لا ترجع ، ألقِ بنفسك بين يدي الرحمن الرحيم ، وتمرغ على أعتاب رحمته ، وناده بقلبك المنيب :

وعزتك وجلالك لا أعود حتى تغفر لي... أرأيت إلى الأم كيف تسرع إلى طفلها تحمله وتقبله وتمسح التراب عن وجهه ، عندما يعود إليها ، ويلقي بنفسه على بابها ، وقد أقر بذنبه واعترف بخطئه... الله يا بني أرأف بك من هذه الأم بولدها .

تسلل ضوء الفجر من الباب المفتوح ، وهبّت نسمة باردة منعشة ، فلعبت بذبالة الضوء في القنديل ، ونشرت ضوءاً مريحاً في أرجاء المكان ، وسمعت أسراب العصافير تزقزق في ذلك الصباح الجميل ، وأفتر ثغر الفجر عن ابتسامة حلوة مصبوغة بحمرة خفيفة .

تبسم الرجل الكبير . . وتدحرجت على خده دمعة صغيرة ، ونظر إلى العجوز نظرة حب وامتنان .

لقد فتحت أمامه الباب واسعاً واسعاً ، وشعر كأن ثقلاً هائلاً يزاح عن كاهله فيخف جناحه ، وترفرف روحه تريد أن

تحلق إلى عالم جديد ، عالم الملائكة والرحمة ، والعودة إلى الله .

وصوصت الصغيرة وهي تتقلب على فراشها ، ودبّت في القرية حياة جديدة ،تستقبل اليوم الجديد ، والوليد الجديد .

ونهضت العجوز تقول :

ـ إنني أعرف رجلاً عالماً . . إنه يسكن في تلك القرية الكبيرة .

وأشارت بيدها إلى ناحية بعيدة ، والتفتت تنظر إليه تستحثه على النهوض :

ـ إنها في تلك الناحية إنها قريبة ، سيجيبك الرجل عن كل شيء .

أراد أن ينهض ، وحرّك نفسه مستنداً على كفه الأيمن ، ولكنه تذكر شيئاً!! جعله يعود إلى مكانه ، وتعود إليه كآبته وتخيم عليه غمامة من الحزن ، وأطلق حسرة محرقة ، وقال كمن فقد الأمل بالنجاة :

ـ لقد رأيت هذه الليلة رؤيا .

نظرت إليه العجوز ، وقد هالها أن ينهدّ هذا الجبل العظيم في لحظة واحدة! إن حياته تبدو سلسلة من المتاعب لا تنقطع . . . إنه يبدو تماماً كما عبّر عن نفسه . . . إنه يحترق .

ولكن ما هي المادة التي تستطيع أن تطفئ هـذا الحريـق؟ أو على الأقل توقفه عند حده؟

وأقبلت العجوز تقول :

ـ وما رأيت؟

ومضت تستحثه ، وهي تأمل أن تعثر في هـذه الرؤيـا علـى المفتاح الضائع ، لكي تسـتطيع ، أو يسـتطيع هـو أن يخـرج هـذا السر الحبيس . . السر المسـجون فـي صـدره ، والـذي أوشـك أو قارب على الانفجار .

إنها تريد أن تخرج هذا السر مع نور الفجر ليتبدد كما تبدد الظلام . .

وعادت إليه ، ولم تعد تصبر ، وأقبلت عليه بكل جوارحـها تستحثه على الكلام ، وتقول :

ـ وما رأيت؟

ونظر إليها ، وكأنه يريد أن يستحضر رؤياه كاملة ، يريـد أن يجمع خيوط ما رآه ، فينسج منها حديثاً متصلاً قد لا يعلـم هـو أهميته .

وازداد حماسها إلى سماع الرؤيا ، وهزته بيدها كأنـها تريـد أن توقظه . . أن تعيده إلى نفسه .

وقالت :

ـ أنت رأيت رؤيا ، أليس كذلك؟

فهز رأسه وقال ، وكأنه ما زال في نومه :

ـ لقد رأيت الليلة رؤيا . .

وعادت تهزه مرة أخرى وقد نفد صبرها ، وصرخت في وجهه :

ـ وما رأيت؟

***

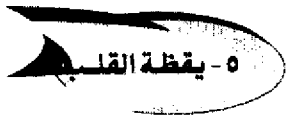


ـ لقد رأيت فيما يرى النائم ، في اللحظات التي نمتها هنا ، رأيت نفسي وحيداً ، أسير في أرض قفر ، لا ماء ولا زرع ، كنت متلهفاً لأن أرى أرضاً خضراء ، أو ماء ، أو عماراً ، وفجأة سمعت صوتاً ينادي ، يدعوني إليه... صوت امرأة . . التفت إلى ناحية الصوت ، فلم أرَ شيئاً ، واندفعت في اتجاه الصوت ، أكاد أتذكر أين سمعته . . ثم رأيتها!! أمي . . أمي تناديني ، فاندفعت إليها كالطفل . . كانت تقف على أرض خضراء زاهية ، أردت أن أصل إليها ، أن أقف على الأرض المعشبة معها ، ولكن سيلاً جارفاً انحدر فجأة من الجبال وأبعدني عنها . . قاومت السيل بكل قوتي ، فلم أفلح ، فقد غمرني الموج ، وكاد يخنقني ، فهتفت بكل جوارحي يا ربي ، وإذا بي أصبح قريباً من أمي ، فأسرعت تمد يدها ، فلما لامست يدي ، تشبثت بها ، كما كنت أفعل عندما كنت صغيراً .

وقبل أن تنشلني استيقظت على صوت الطفل يبكي .

لقد بدأ يتكلم وكأنه يعيش في رؤياه ، ينتقل معها بحوادثها ، ولكنه قبل أن ينتهي ، شرد بأفكاره إلى ناحية أخرى ، فلم يعد يشعر بأهمية هذه الرؤيا!

لقد هجمت عليه فكرة أخرى ، هكذا فجأة . .

لماذا قتل الراهب؟

ما الذي جناه الرجل الصالح العابد المسكين حتى قتله؟ إنه لا يستطيع أن يقدم تعليلاً معقولاً لما حدث . .

كان الراهب يعبد الله . . بعيداً عن أذى الناس ، بعيداً عن الدنيا ، ألقى بنفسه في تلك الصومعة ، وتركها تجري به في موج كالجبال ، فالدنيا من حوله لم تعد صالحة للبقاء .

ولكن . . لماذا قتله؟

ماذا يتوقع رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً ، من رجل لم يؤذ يده حيوان؟!

لو كان مكان الرجل الصالح ، لما فعل غير الذي فعله ، وكانت أدنى وسيلة للاحتجاج .

لقد دخل على الراهب المسكين وهو بين أدعيته وأذكاره ، محلقاً بروحه اللطيفة إلى عالم الملائكة ، العالم الطيب ، الذي لا يعصي الله أبداً ، وقد أقبل عليه ، بكل ما فيه من فظاظة وغلظة ، فقضى على تلك الأنفاس المضمخة بعبير ذكر الله والتسبيح بحمده ، وأوقف دقات القلب الخاشع المنيب . .

فأغمض العين التي طالما غسلتها دموع التوبة والخشية والخوف من الله . . وأسكت الصوت الرقيق الحنون ، الذي ما نطق في يوم من أيام عبادته ، بكلمة نابية ولا عبارة جارحة .

ونظر إلى نفسه . .

أيفعل كل هذا؟

كيف يرجو أن يتوب الله عليه ، وهو الذي عاث في الأرض وفساداً . .؟

كيف يرجو أن يغفر الله له؟

وبدا له وجه الراهب ، غاضباً ، يدفعه بيده ويصيح :

ـ لا تدنس صومعتي بأقدامك . . لا تلوث هوائي بأنفاسك .

ولكن أين ذهب؟

أي أرض يستطيع أن يطأها فلا تدنسها أقدامه؟ إلى من يتوجه؟ بمن يلوذ؟

نحن البشر لمن . . لمن هذا الملك كله؟

لمن هذه الدنيا بما فيها؟

تطلع حوله ، بجدران البيت كلها ، وإذا بالفضاء الفسيح الذي يبدو من فتحة الباب ، وإذا بقنديل الزيت المعلق في جدار البيت . . وإذا بالدنيا كلها . . كلها . . تهتف بصوت واحد :لله الواحد القهار .

فضرب بكفيه على رأسه ، ومال بجسمه الكبير على الأرض ، وأخذ يبكي كما يبكي الطفل الذي فقد شيئاً عزيزاً وثميناً!

أيفعل كل هذا؟ أيقتل الناس ثم يسير بطول قامته وكأنه لم يفعل شيئاً؟

ألم يعلم بأن الله خالق الأرض والسماء ، خالق الدنيا ، رب كل شيء ومليكه . .

وهنا هتف بكل جوارحه وهو يرفس كما يرفس الخروف المذبوح :

- يا رب . .

استيقظت الطفلة من نومها ، واعتدلت في مكانها وهي تفرك عينيها ، ثم تطلعت مستغربة . .

ما الذي جعلها تنام هنا ؟

نظرت إلى العجوز التي جلست قريباً من الرجل المكوم على الأرض ، وانتقلت بنظراتها إليه . . وتذكرت . . تذكرت رفيق الليلة الماضية ، رفيقها في الذهاب إلى القابلة . . ولما رأته يبكي ، دفعت الغطاء ، وأسرعت إليه ، فجثت على ركبتيها ، واحتضنت رأسه الكبير بيديها الصغيرتين الرقيقتين ، وقالت بصوتها الناعم :

- لا تبكِ يا عمي . . لا تبكِ . . إن أمي بخير ، لقد ولدت طفلاً .

أما العجوز فقد التفتت إلى ناحية أخرى وهي تقول ، وكأنها تخاطب نفسها :

- لقد انهدّ الجبل .

فيما مضى ، كان يرى أنه من العار على الرجل أن يبكي ، بل من الجبن ، وهل البكاء إلا للنساء؟!

ولكن هاهو اليوم يبكي . .

ويبكي من أعماق قلبه ، لقد تحولت أحزانه الكثيرة إلى دموع . .

كم مرة أراد أن يتوب؟ كم مرة وقف في وجه أصحابه . . شركائه في الجريمة يصرخ بهم :

ـ لن أعود إلى الجريمة . . لن أعود . .

ولكنه كان يعود . . يعود كأقبح وأبشع مما كان عليه . .

وها هو اليوم يبكي . . يبكي أيامه الماضية التي قضاها في قتل الناس . .

يبكي نفسه الضائعة ، يبكي حيرته وتيهه ، و يكاد هو نفسه ، يتحول إلى دموع . .

هل يستحق شربة ماء . .؟

هل يستحق لقمة من رزق الله . .؟

ومضى كلما تذكر نعمة من نعم الله يبكي ، ويبكي ، حتى دمعت عين العجوز ، وأخذت الطفلة تشاركه البكاء وهي لا تدري لماذا يبكي!

وشخطت العجوز ، ومسحت أنفها بطرف ثوبها ، أما هو فقد اخضلّت لحيته ، وأصاب التراب شعر رأسه .

وتركته العجوز يبكي ، حتى انهدّ تماماً ، ثم اعتدل في جلسته ، وقد امحت عنه تلك الآثار التي كانت تدل على فظاظته وخشونته وتنمره .

ولما ارتاح قليلاً ، التفتت إليه العجوز تقول :

ـ هل أنت مستعد للذهاب إلى الرجل العالم؟

فهز رأسه وقال :

ـ نعم . . لنذهب إليه .

فنهضت بسرعة ، وكأنها تخشى أن يرجع عن كلمته ، وأشارت بيدها تقول :

ـ هيا . .

وقبل أن يتحرك للنهوض ، جذب إليه الطفلة ، وضمها إلى صدره ، وقبّلها من رأسها . .

كم كان يتمنى لو كان له بيت صغير مثل هذا البيت ، وزوجة وفية ، وطفلة جميلة مثل هذه . .

لماذا ضيّع حياته؟

أخذ يتحسس شعر الطفلة بأنامله .

إذا مدّ الله في عمره فسوف يبني بيتاً ، ويتزوج ، ويعيش مع زوجه وأطفاله ، كما يفعل أي رجل . . أي رجل يشعر بكرامته . .

اطمأنت الطفلة إليه ، فالتصقت على صدره وأخذت تتحسس بيدها الصغيرة الناعمة لحيته الكثة وقالت :

ـ لماذا لا تستحم؟

نظر إليها بحنان ، وأجاب بصوت يشبه الهمس :

ـ سأستحم . . سأستحم يا بنيتي .

يا بنتي . .

وهزته هذه الكلمة . . لأول مرة تأتي على لسانه ، ولكن ما ألذها ، ما أجملها . . لقد ظن أن غيره قد نطق بها . . فعاد يكررها ، يستزيد من حلاوتها ، ورددها بصوت اجتهد أن يكون خافتاً :

ـ يا بنتي

وتصور نفسه راجعاً من الجبل ، مقبلاً على بيته ، فاستقبلته ابنته من بعيد ، وأخذت تركض نحوه وتصيح :

ـ أبي

وقد هرول نحوها ، ليوفر عليها بعض المسافة ، ولكي يشاركها شعورها ، فيلتقي بها في منتصف الطريق ، ويحتضنها ، ويرفعها بيديه ، ويحملها على كتفه ، ويعدو بها . .

ويتطلع إليه الرجال والنساء في القرية ، ينظرون إليه ويبتسمون .

كانت هذه التأملات قد تركت على وجهه أثراً جميلاً ، هادئاً ، وعلت وجهه ابتسامة الرضى .

وقفت العجوز عند الباب ، وكانت تنظر إلى انفعالاته وتعابير وجهه ، وراحت تتمتم متعجبة :

- كيف تحول الذئب إلى حمل؟

وعادت العجوز توقظه من أحلامه :

- هيا يا رجل . . هيا قبل أن ينتصف النهار .

ووقف بجسمه الكبير ، وهو يترك الصغيرة تفلت من بين يديه . . وقف ينظر إليها ويبتسم ، وفي عينيه ألف ألف شكر .

وقبل أن يغادر ، عاد مرة أخرى فانحنى على الطفلة ومسح بيده على شعرها الناعم النائم ، وطبع على رأسها قبلة ، أودعها كل حبه وحنانه واعترافه بجميلها ، ثم اعتدل في وقفته وقال بصوت مسموع ، موجهاً كلامه إلى المرأة النائمة في الحجرة المقابلة :

- أرجو الله أن يبارك طفلك .

ثم خرج يسير مع العجوز ، وهو يتلفت بين آن وآخر ، ينظر إلى الطفلة التي وقفت تلوح له بيدها ، كلما التفت ينظر إليها .

ومضى الرجل مع العجوز ، يحث الخطى نحو القرية التي أشارت إليها ، ليسأل الرجل العالم ويقول له :

لقد قتلت مئة نفس ، هل لي من توبة؟

***

مضى الرجل الغريب مع المرأة العجوز يحث الخطى ، وسار متلهفاً للوصول إلى القرية الأخرى ، القرية التي يرجو أن يجد فيها الدواء لجرحه المكلوم ، لقلبه الذي أحرقته الذنوب ، لروحه الحائرة ، التي تريد الرجوع إلى الله .

ولم يمضِ بعيداً حتى شعر كأن قواه تنحل ، لقد أحس بما يشبه الدوار في رأسه ، وبشيء من الضعف يدب في أوصاله .

والتفتت العجوز تحثه :

ـ ما الذي أصابك . .

قال :

ـ لا أدري . . ربما لأني لم أتناول طعاماً . .

فأسرعت إليه تتناول يده ، ثم تتحسس حرارة جسده ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ أنت محموم .

ثم أضافت :

ـ هل تريد أن تستريح قليلاً؟

قال :

ـ لا . . أريد أن أصل .

نظرت إليه جيداً ، ثم أشارت تقول :

ـ من الخير أن تجلس الآن . . وسنصل بإذن الله .

وجلس الرجل ينظر إلى ما حوله ، لقد انزاح الغطاء عن رأس الشمس ، وبدت بوجهها الجميل وهي ترسل أشعتها الذهبية على الكون . كان يمتد أمامه سهل فسيح ، سهل خصب ، لم يبق موضع شبر منه دون أن يزرع .

كان منظر السهل في ذلك الصباح الجميل رائعاً رائعاً ، كبساط كبير منقوش على أشكال مربعة ومستطيلة ، فيها الأخضر السندسي ، والأصفر المحروق ، ولون البن الفاتح .

وعلى مرتفع من الأرض ، رأى صبياً راعياً ، جالساً على صخرة ، واضعاً رجلاً على رجل . . كان يغني بأعذب صوت سمعه في حياته . كانت أغنيته من تلك الأغاني الجبلية التي تصف خضرة الأرض ، وزرقة السماء ، والزرع والمطر . . ولكن الجديد فيها ، والذي أخذ بمجامع قلبه ، الصوت الحزين ، ينساب متموجاً . كالبحر هزته الرياح ، وإشارات الصبي بعصاه أثناء الغناء ، حتى سحر بصوته الحزين أغنامه التي انسجمت مع صوته ، فراحت تصغي إليه باهتمام ، وحطّت بعض الطيور

التي يطوق جيدها خيط أسود ، وتلفت الأنظار بروعتها واتساع عينيها . .

أشارت العجوز إلى الطيور وقالت :

ـ هذه هي الطيور القدسية ، تنادي كل صباح يا قدوس يا قدوس .

فلم يرد عليها ، لأنه لا يجد في نفسه الرغبة في الكلام ، كان يعيش مع نفسه الحزينة المتعبة ، و في داخله بركان من الألم والندم ، وأنه لو استطاع أحد أن يفتح قلبه ، لما وجد فيه غير الدموع .

لقد حدثته أمه عن هذه الطيور ، كان صغيراً آنذاك ، وكانت تحذره أن ينالها بسوء ، وكانت تقول له :

ـ إنها من مدينة القدس يا بني .

التفتت العجوز فجأة ، وقالت وهي تنهض :

ـ هيّا . . من الأفضل أن نسير قبل أن ترتفع الشمس .

لم يكن في حاجة إلى الحث ، فقد همَّ بالنهوض قبل أن تتحرك ، ومضى يتبعها .

كان صوت الصبي الراعي ، الذي ملأ الوادي عذوبة ، الصوت الجميل الحزين ، قد ترك في نفسه أثراً ذكره بذلك الصوت الغريب . . صوت الرجل يستغيث .

إنه لا يدري أين سمعه لأول مرة ، وممن سمعه ، ولا يدري ، هل كان ما سمعه حقيقة أم مجرد وهم؟!

ثم التفت إلى القرية التي غادرها ، فإذا بها تختفي وراء تل كبير ، لم يعد يرى الطفلة اللطيفة التي وقفت تودعه ملوّحة بيدها ، ولم يعد يرى البيوت . .!!

وهزّ رأسه وهو يواصل سيره تابعاً المرأة العجوز . .

لا شك أنه تصرف بجنون في الليلة الماضية ، كان عليه أن يطرق الباب بكل لطف ، فإذا خرج رب البيت ، قابله بابتسامة هادئة ثم رجاه بقوله :

ـ إنني رجل غريب ، ليس لي مأوى ، هل تسمح لي بالمبيت هذه الليلة؟

ولكن . . لماذا كان يريد اللجوء إلى البيت؟ وهل كان يلجأ إلى البيوت قبل هذه المرة؟

آه . . لماذا فعلت بنفسي كل هذا؟

وتذكر . .

تذكر أنه كان خائفاً ، كان يشعر كـأن الدنيـا تركـض وراءه تريد أن تخطفه ، أن تحطمه . . وتمتم مع نفسه :

ـ إنه شعور بالضعف .

ولكن لماذا تريد الدنيا أن تحطمه؟ ما الذي جناه؟

والتفتت العجوز تسأله :

ـ هل ارتكبت ذنباً تستحق عليه العقاب؟

وفوجئ بسؤالها هذا ، ونظر إليـها متحـيراً ، ولكنـها مضـت في سبيلها وهي تقول :

ـ لقد كان مظهرك الليلة الماضية يـدل علـى أنـك ارتكبـت ذنباً عظيماً . . كنت تضرب بكفيك على رأسك .

ودون أن تلتفت إليه ، أو تسمع جوابـه ، حوَّلـت الموضـوع ، وقالت وهي تشير إلى الأرض الممتدة أمامها :

ـ هذه الأرض الزراعية تعود إلى القرية التي نقصدها .

ثم التفتت إليه وهي تبتسم :

ـ أنا من تلك القرية .

ووقفت تنظر إلى الأرض ، وتستعيد ذكرياتها ، وقد داعـب الهواء خصلة مـن الشـيب تدلـت مـن رأسـها ، وتنفسـت بمـلء

صدرها وقالت بصوت خفيض خفيض ، كأنها تخشى أن تستيقظ من أحلامها :

ـ هذه الأرض الغالية كانت لأبي . . هنا رآني . . كنت أجيء مع أبي أساعده . .

لقد أخبرني بعد ذلك ، أنه من أول مرة . . من أول نظرة شعر بقلبه يطير إلى ناحيتي .

جلست على صخرة ، وحلقت بروحها إلى أيامها الأولى ، إلى أحلامها الجميلة ، وتبسمت ، وقد عاد لها نشاطها وسرورها ، وراحت تتحدث بكل أحاسيسها .

ـ لقد بذل كثيراً حتى ظفر بي ، كان أبي لا يريد أن يزوجني بعيداً عنه ،كان يريدني أن أتزوج في نفس القرية ، ولكن . .

ورفعت رأسها إلى السماء وتمتمت :

ـ إرادة الله تغلب كل إرادة . . وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

كان يصغي إليها ، كان يشعر بدبيب خفي يدبّ في أوصاله يشله عن الحركة ، فاستند بجسمه الكبير إلى صخرة ،

ثم ترك جسمه ينساب نازلاً حتى جلس على الأرض ، ومسح جبهته بيده ، وهبت نسمة باردة أنعشته .

لم يبق أمامه غير هذا السهل ، وعليه أن يقطعه ، ليصل إلى ذلك الجبل الذي لا يبدو عالياً ، والقرية التي يقصدها تقع خلف الجبل .

وعادت العجوز تروي أحلامها :

ـ كان يوم الزفاف جميلاً . . أركبوني على حمار أبيض نظيف ، كان حماره المفضل ، لقد خرجت معي القرية كلها ، بالرجال والنساء والأطفال ، لم يحظ غيري بمثل ما حظيت به من عرض جميل .

والتفتت إليه وقالت وهي تبتسم بحياء :

ـ كنت أجمل بنات القرية .

ثم سكتت قليلاً ، وأشارت بأصابعها وهي تضحك :

ـ أهداني أبي خمس دجاجات ، وبساطاً ثميناً . . كنت ابنته الوحيدة .

وتنهدت وهي تضرب بكفها على فخذها :

ـ كم كان يحبني ـ رحمه الله ـ ألم أقل لك ، كنت ابنته الوحيدة .

ثم التفتت إليه ، ولما رأتـه جالسـاً يصغـي إليـها ، صـاحت بعصبية ظاهرة :

ـ لنسرع يا رجل ، لماذا تجلس هكذا . . ألم أقل لك إنه من الخير لنا أن نصل قبل أن ترتفع الشمس؟

ولم يعترض على كلامها ، ومضى يتبعها ، ولكنه لا يدري من أين جاء كل هذا الضعف ، إنه يحس بقـواه تتلاشـى شـيئاً فشيئاً ، ولم يشعر في نفسـه رغبـة للأكـل ، كـان كـل همـه أن يصل . . أن يصـل إلـى الرجـل الـذي يسـتطيع أن يجيـب عـن سؤاله .

ولكن ماذا لو أجابه الرجل العالم وقال له :

ـ إن باب التوبة في وجهك مسدود . . إنه ليس لك توبة .

هل سيقتله كما قتل الرجل العابد؟

وسمع العجوز تصيح :

ـ ها قد وصلنا . . ها هي القرية .

لم يكن أمامه غير الجبل القليل الارتفاع ، وكـانت العجـوز تتسلقه بخفة ونشاط ، أما هو فقد كان يجد صعوبة في تسلقه ، ووقف مرات ليمسـح العـرق المتصبـب علـى جبينـه ، وليسـترد أنفاسه اللاهثة .

عجباً . . كل هذا يحدث في ساعات؟!

لقد أراد في الليلة الماضية أن يهدم القرية على رؤوس أهلها ، وها هو اليوم لا يقوى على صعود جبل قليل الارتفاع!

وكانت العجوز قد سبقته إلى أعلى الجبل ، ووقفت تناديه :

ـ ما الذي جرى لك؟هل تريد أن تقضي النهار على التل؟

تحامل على نفسه ، واستطاع بشق النفس أن يصل إليها . . ها هي القرية . . بيوتها تنحدر مع انحدار السفح ، و يخترقها نهر صغير ربما تكوّن من مياه الأمطار ، وأمام القرية على شاطئ النهر الأيمن مجموعة من الأشجار الباسقة المتعانقة .

كان أول ما طالعه ، شاب يمتطي حماراً ، يسير متمهلاً . . وفتيات في عمر الورد خرجن بأرديتهن الملونة الزاهية يحملن جرار الماء ، وقد تحلقن حول العين في السفح ، وكن يتحدثن ويضحكن مرحاً .

لم يرد أن يطيل الوقوف هنا ، كان يريد أن يصل إلى الرجل العالم ، ليسمع من فمه الجواب ، وشعر كأن الهواء في هذه الناحية يختلف قليلاً ، والجو يبدو هادئاً جميلاً ، وقد دبَّ فيه بعض النشاط ، والأزهار الملونة الضاحكة تنتشر في هذه

الناحية يهزها الهواء ، فتتمايل نشوى ، والماء في الجدول يجري صافياً رائقاً يشف عن قطع مرصوفة من الحصى الملون .

عندما تقدم نحو البيت ، رأى عدداً من عجائز القرية وقفن يثرثرن ، ولمّا سلّمت عليهن رفيقته العجوز ، رحبن بها كثيراً واحتضنتها إحداهن وراحت تقبلها بشوق .

من أحد البيوت سمع صوتاً يرتفع ، يتلو آيات من كتاب الله ، من ذلك البيت كان يهم بالخروج رجل متوسط القامة نافذ النظرات ، يدل منظره على القوة والصلابة ، وتلتمع عيناه بذكاء حاد .

وهرعت العجوز تسلم عليه ، ثم تقول :

ـ هذا هو الرجل العالم الذي حدثتك عنه .

والتقت نظرات الرجل العالم الفاحصة المتمعنة بنظرات الرجل الغريب ، فتسمر في مكانه ، وقال بصوت خفيض :

ـ أريد أن أتوب .

وثبت الرجل العالم نظره إليه ، بينما استمر هو يقول :

ـ لقد قتلت مائة نفس فهل لي من توبة؟

وفغرت العجوز فاها وضربت على صدرها وهي تصيح :

ـ أنت قتلت مائة نفس . . يا ظالم .

بينما ظلّ الرجل العالم ينظر إليه دون أن يطرف له جفن ، ودون أن يُذْعَر كما ذُعِرَ الراهب ، وإنما بقي يركز نظراته كأنه يريد أن يتم قراءة هذا الكتاب الضخم المفتوح أمامه .

ـ لقد سألت عن أعلم أهل الأرض فدلوني عليك . . فأخبرني . . أخبرني بالله عليك . . هل لي من توبة؟

كانت هناك قطة كبيرة تقف متوترة ، وطير نافر حطّ على سطح قريب ، وعدد من الأطفال وقفوا يتطلعون إلى الرجل الغريب الذي يقف متخاذلاً أمام عالم القرية .

عاد الرجل يستعطف بصوت ضعيف :

ـ لقد ضاقت عليّ الدنيا ، وضاقت عليّ نفسي ، إنني أشعر كأن جميع الأبواب قد أوصدت في وجهي ،وأن ألسنة اللهيب تنتظرني .

واستند بظهره إلى الجدار ، وأخذ يردد بيأس قاتل :

ـ أخبرني بالله عليك . . هل لي من توبة؟

هزَّ الرجل العالم رأسه ، وقال بثقة واطمئنان :

ـ نعم . . ومن يحول بينك وبين التوبة؟

إن باب التوبة مفتوح ، فتحه الله لعباده المذنبين ، وما فتحه الله لا يسده إنسان ، ثم نظر إليه نظرة نفذت إلى أعماقه وقال :

ـ انطلق إلى قرية تقع وراء هذا الجبل ، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم . . ولا تعد إلى أرضك فإنها أرض سوء .

وحلق الطير مصفقاً بجناحيه ، وماءت القطة الكبيرة وهي تهز ذيلها ، وارتسم البشر على وجوه الصغار ، وتقدم الرجل تملأ صدره فرحة غامرة ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وشدَّ على يد الرجل العالم ، و قال بصوت تخنقه العبرات :

ـ أشكرك . . أشكرك . .

ثم رفع رأسه إلى السماء ، ودموع العودة إلى الله تنساب على خديه :

ـ شكراً لك يا رب . . اللهم إني تبت إليك .

ومضى العالم يحثه فقال :

ـ أنصحك بعدم تأجيل التوبة ، فإنك لا تدري أيمتد بك الأجل إلى غد .

وشدّ الرجل على يده مرة أخرى ، ثم التفت يقبل رأس العجوز وقال :

ـ سأذكر جميلك ما حييت .

ثم عاد يخاطب العالم :

ـ سأذهب الآن . . إني ذاهب إلى القرية التي فيها قوم يعبدون الله .

ومضى يشتد ، وقد عادت إليه حيويته ونشاطه ، وعاد إليه الأمل الواسع العريض ، الأمل برحمة الله والعودة إليه ، ومضى يردد بصوت مسموع :

ـ اللهم إني تبت إليك . . اللهم إني تبت إليك .

***

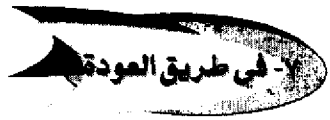


كانت القبلة التي طبعها على رأس العجوز ، قد تركت في نفسها أثراً بعيداً ، غسلت ما حملته تجاهه عندما سمعت بأنه قتل مائة نفس ، ووقفت تنظر إليه وهو يبتعد ، في طريقه إلى الأرض التي وصفها له الرجل العالم ، وذكر أن بها أناساً يعبدون الله .

ولما ابتعد كثيراً ، التفتت العجوز تخاطب العالم فقالت :

ـ هل تظن أنه يستطيع أن يتوب؟

فأجابها بكل ثقة :

ـ ومن يحول بينه وبين التوبة؟

مضى العالم في طريقه ، بينما عادت العجوز فانضمت إلى صديقاتها العجائز اللاتي كن يثرثرن ، ووقفت تقص عليهن ، وهي تشير بيدها إلى الرجل الذي ذهب بعيداً ، وهو لا يفتأ يردد بكل إخلاص وحماس : اللهم إني تبت إليك . . اللهم إني تبت إليك . . وقد اندفع في طريقه ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، أصحيح هو . . هو الرجل الذي أفنى حياته بعيداً عن الله ، منغمساً فيما يعود على نفسه وعلى الناس بالضرر والأذى والهلاك ، هو . . هذا الرجل ، يقبل الله توبته؟!

((يا إلهي يا رب العالمين . . يا أرحم الراحمين . . هل تقبل توبتي؟))

كان الطريق أمامه متعرجاً ، شاقاً ، والصخور الكبيرة كثيرة ، وتعترضه في كل خطوة ، وقد بلغت الشمس كبد السماء ، وكان لشدة فرحته ، قد نسي ما به من ضعف وانهيار ، وسار وقد شغله أمر واحد ، ونسي كل ما عداه ، شغله أمر القرية التي تقع وراء هذا الجبل ، والتي يسكن فيها قوم يعبدون الله تعالى .

كان يسير ولسانه لا يكل عن التضرع إلى الله ، بكل ذلة وخضوع :

((اللهم إني جئت إليك فلا تردني . . يا من يجيب المضطر إذا دعاه))

وكانت تنتشر في طريقه بعض الأشجار القليلة الارتفاع ، وعلى جوانب منها حشائش كثيرة ، شاهد أثر الرعي على حوافها .

ومضى ينظر إلى ما حوله ، وقد بدا له الكون ، أجمل مما كان يراه ، وقد فتنه منظر الطيور في السماء ، وأخذ يخاطب نفسه :

ـ لماذا لا يحلق الإنسان بروحه كما تحلق هذه الطيور بعيداً عن التراب؟

كان يسير في الدرب المطروق ، وقد نهضت إلى جانبه الأيمن كتلة كبيرة تبدو وكأنها قدت بمنشار .

كان منظرها يبعث الراحة في النفس ، فبينما يرى بعضها في مثل سواد الفحم ، يرى إلى جانبها قطعة بيضاء ، أشد بياضاً من الوفر ، وإلى جانبها قطعة حمراء داكنة .

ومضى في طريقه مندفعاً متحمساً ، وهو يمني نفسه بالوصول بسرعة إلى القرية . لقد أشار العالم بيده وقال ، إنها وراء الجبل .

في طريقه شاهد عين ماء ، ينساب ماؤها إلى مسافة قصيرة ، ثم يغوص في أحضان الصخور ، ولا يظهر إلا على مسافة بعيدة في المنحدر ، حيث نبتت أعشاب كثيرة ، وازدحمت عليها العصافير والقنابر وطيور الزاغ السوداء .

كان منظر العين جميلاً مغرياً ، تحيطها الصخور البيضاء النظيفة ، وتطوقها حشائش خضراء ، زاهية ، تتخللها بعض الزهور الجميلة .

انحنى على عين الماء فغمس يده فيها ، ثم أخرجها عندما شعر بشدة برودتها ، ثم غسل وجهه ، وبلل لحيته ، ثم غرف بيده وشربها ، وما أن وصل الماء إلى جوفه حتى أحس بدبيب الانهيار يدب في أوصاله ، وتمنى لو أكل شيئاً ، لعله يعيد إليه صحته ونشاطه ، فلم يرَ قريباً منه غير الحشائش ، ذات الأوراق الكبيرة ، والتي غالباً ما تجمعها النساء ويطبخنها ، فقطع بيده عدداً وغسلها ، ثم وضعها في فمه وراح

يمضغها بتؤدة ، ولكن نفسه عافتها ، وقذفتها معدته عندما وصلت إليها ، وشعر كأن معدته قد أغلقت بابها تماماً فلا تريد أن تفتحه لأي طارق ، لا ماء ولا طعام!

متى يستطيع الوصول إلى القرية التي فيها قوم يعبدون الله؟!

كان الهواء رطباً ، وفي السماء غيمة نائية ، تبدو غريبة ، أو ضائعة في هذا الكون الواسع الأرجاء ، ومن بعيد شاهد رجلاً مقبلاً إلى هذه الناحية .

ونهض بصعوبة ، وتمنى لو استطاع أن يجد عصا يتوكأ عليها ، يحمل عليها نفسه المتعبة ، ثم وقف ، لعله يجد من يحمله إلى حيث يريد ، سوف لا ينسى هذا الجميل .

مضى مستنداً على الصخور ، ثم جمع قوته وسار مترنحاً . .

وكان الطريق المعبد يأخذ بالارتفاع ، ولكن بصورة تدريجية فكان يجد صعوبة في ارتقائه .

(( لقد قضيت حياتي في المنحدر ، وها أنا اليوم ، اليوم فقط ، أحاول الصعود . . يا إلهي . . يا رب العالمين . . أعنّي ، وخذ بيدي ، واقبل توبتي وعودتي إليك ))

وعندما لم يجد في نفسه القوة على السير لوحده ، عاد مرة أخرى يستند على الصخور ، ووقع مرتين ، والمرة الثالثة تأخر في النهوض .

واستمر في سيره ، حتى إذا بلغ ذروة المرتفع ، وبلغ به الجهد غايته ، ووقف لاهث الأنفاس ، وازدادت دقات قلبه زيادة أرهبته ، وقد انهارت قواه مرة واحدة ، واستند بظهره إلى صخرة ، وأخذ يردد بصوت خفيض :

ـ يا رب يا رحيم . . أعنّي .

أغمض عينيه ، ووضع يده على صدره ، يتحسس دقات قلبه ، لقد أخذ قلبه يدق بسرعة غير اعتيادية .

كان الهواء يضرب وجهه فيلطف ما به ، وقد بدا السهل من الناحية الغربية فسيحاً ممتداً لا يرى فيه أثراً للزرع ، إلا بعض الأشواك المنتشرة هنا وهناك .

ثم فتح عينيه عندما سمع حركة ، وظنّ أن الرجل الذي رآه مقبلاً من بعيد قد وصل ، وظلّ ينتظر لحظات يريد أن يسأله عن القرية .

و فجأة ، برز أمامه ذئب أغبر!

ما الذي جاء بهذا الذئب في هذه الساعة؟

ووقف الذئب متحدياً ، ناظراً إليه نظرة استفزاز ودعوة للقتال .

إنه لا يريد أن يموت الآن!

إنه يريد الوصول إلى الأرض التي يقصدها ، أن يعيش أيامه الأخيرة مع القوم الذين عرفوا الطريق إلى الله فسلكوه ، وساروا عليه .

كم تنفع العصا الآن . .!!

لقد كان الذئب فتياً قوياً ، رائعاً . .

كان يقف متحدياً تحدي الأبطال . .

كان يحيط بأنفه ، وفوق فمه ، سواد لامع . .

وفي اتساع عينيه الصفراوين أكثر من عزم وإصرار . .

فكر في أن يستغيث ، لعل أحداً يسمع صوته فيهرع إليه ، على الأقل يعينه على هذا الذئب .

وهنا . . هنا في هذا الموقف تذكر أين سمع ذلك الرجل الذي كان يستغيث ، تذكره تماماً ، تذكر الحادث بكل تفاصيله ، وتعجب غاية العجب . .

أفي هذا الموقف يتذكر مثل هذه الحادثة؟

كم حاول أن يتذكرها سابقاً فلم يوفق .

لم يتحرك الذئب من مكانه ، بل وقف عالي الرأس بارز الصدر ناشراً أذنيه ، يستعرض قوته بكل اعتزاز .

كان لون ظهره الرمادي ، ينساب إلى جانبيه فيضمحل ثم يتحول إلى اللون الأصفر المغبر .

أيموت على هذه الحال ، أيقتله الذئب؟

أهكذا تكون نهايته؟

تمنى لو استطاع أن يصيح ، أن يستغيث .

((وبرزت أمامه صورة ذلك الرجل مرة أخرى ، لقد كنت آنذاك في العشرين من عمري ، وكنت قد عدت من عند حكيم القرية الذي أعطاني قارورة من الدواء ، أغلقها بإحكام ، وقال :

ـ لا تتأخر عنها ، دعها تشرب من هذا الدواء حال وصولك .

تشربه كله مرة واحدة ، وسوف تنام لساعات ، ثم تستيقظ ، فإذا استيقظت فقدم لها حساءً دافئاً ، ولكن بكمية قليلة جداً ، وبعد ساعة من الزمن ستعود إلى طلب الطعام ، فقدم لها من نفس الحساء ، وبكمية أكثر بقليل ، ثم اتركها ساعة أخرى ، وبعد ذلك قدم لها أي كمية تطلبها ، فإنها ستقبل على الطعام بشهية .

ثم نظر إليّ وكأنه يستحثني :

ـ لا تتأخر عنها .

لم أكن في حاجة إلى وصيته ، فقد كنت أحب أمي حباً ، لا أصدق أن على الأرض من يحب أمه مثلي ، وعدت أحمل الدواء ، في طريق جبلي وعر ، فقد كنت أقيم مع أمي في قرية أخرى ، وراء وادي العروس ، وقبل أن أهبط الجبل ، سمعت صوت رجل يستغيث ، كان يتردد صوته في جنبات الوادي ، كان ذلك قبل الغروب .

لم التفت إلى الصوت ، وأسرعت بالسهبوط ، أريد الوصول إلى أمي . . أمي التي تعاني من شدة المرض ، والتي أفديها بكل شيء بحياتي .

ولكن صوت الرجل ظل يطرق أذني ، ويسد عليّ المسالك . . وتذكرت قول أمي :

ـ أحسن إلى الناس يا بني . .

أحسن إلى الناس يحسن الله إليك .

وقفت متردداً ، لقد وصاني الحكيم بألا أتأخر عنها ، وهذا الرجل ، ربما يكون في حالة تؤدي به إلى الهلاك إذا لم أنجده!

وعدت في الحال ، وقد قررت أن أنقذه . .

عدت راكضاً لا أعبأ بالصخور التي تعترضني ، فصعدت الجبل ، ورأيته .

كان قد اضطره دب كبير إلى ناحية من الجبل ، فتسلقها ، وبقي معلقاً في حالة تدعو إلى الرثاء ، وكان الدب مترصداً له منتظراً انهيار الحافة الضعيفة التي تحت قدمه لكي يقع فينقض عليه .

لقد كان الدب كبيراً عظيماً ، يميل لونه إلى الرمادي المصفر .

ولم يلتفت الدب إلى ناحيتي ، ولم يعرني انتباهه ، فعمدت إلى شجرة وقطعت منها غصناً ، وأقبلت عليه ، وكنت قد أعددت للأمر عدته ، وأردت أن أبعده عن الرجل لعله

يستطيع النجاة بنفسه ، وأردت أن أخدعه فضربته بالغصن على ظهره ، وانسحبت بسرعة إلى الجانب المنخفض فالتهب الدب غيضاً ، وهاجمني بعنف ، فزغت عنه ، وفقد توازنه وانهارت به الصخرة إلى الوادي العميق .

وهكذا نجا الرجل ، وهرع إليّ يشكرني باسطاً ذراعيه ، يريد أن يصافحني ، ولكنه في طريقه إليّ عثر بقارورة الدواء ، فتدحرجت إلى الوادي ، وتحطمت .

فأظلمت الدنيا في وجهي ، وصرخت غاضباً :

ـ أنت قتلت أمي .

وهاله منظري ، وكان قصيراً نحيفاً ، حليق شعر الرأس واللحية ، فتراجع وهو يقسم أنه لم يرَ القارورة ، ولكني فقدت صوابي ، وصرخت به مرة أخرى :

ـ أنت قتلت أمي .

ثم هجمت عليه ، وحملته ، وهو يرفس بيديه ورجليه ، وألقيته وراء الدب ، و أسرعت بالهبوط ، وكانت الشمس قد اختفت ، والأحجار الصغيرة تتطاير أمام قدمي ، واندفعت في وادي العروس ، ولم ألتفت إلى الرعاة العائدين ، ولا إلى الحيّات الصغيرة التي أخذت تهرب من طريقي ، ولا إلى شيء من حشائش الأرض .

حتى وصلت إلى قريتي . .

وأول من استقبلني عدد من الشباب فقالوا بلهجة تنم عن الحزن :

ـ لقد ماتت أمك .

ولم أرد أن أصدق أذني ، فاندفعت أركض نحو البيت ، لا أريد أن تموت أمي . . لا أريد أن تموت ، لقد قلت لها مراراً ، أفضل أن أموت قبلك يا أمي ، أريد أن أفديك بروحي يا أمي ، لقد كانت طيبة ورحيمة ، وعظيمة الثقة بالله تعالى .

ولما وصلت إلى البيت ، رأيت امرأة تخرج منه ، رأيت الدموع تملأ عينيها وقد تورمت من كثرة البكاء ، فلما رأتني صاحت في وجهي وهي تقول :

ـ لماذا تأخرت؟ أين كنت؟

لقد ماتت أمك ولم تجلب لها الدواء . .

وأظلمت الدنيا في عيني ، وشعرت كأنها تدور بي ، وكأن كل ما حولي يردد صوت ذلك الرجل الذي كان يستغيث ، وقدَّرت أنه لم يمت ، لقد كان السبب في موت أمي .

وهيء لي أنه هناك ، فعدت أركض أريد أن أقتل الرجل الذي تسبب في موتها ، وبقيت أركض حتى كلّت قدماي ، وانهارت قوتي تماماً ، وسقطت على الأرض مغشياً عليّ .

فتح عينه ، فرأى الذئب ينظر إليه ، ناشراً أذنيه ، وقد أخذ يهر كما يهر الكلب ، وكان يبدو عليه كأنه استبطأه ، فضرب الأرض برجله ، ولكنه بقي في مكانه ، يواجهه بأنفه اللامع الأسود ، وصدره الذي يكسوه شعر أبيض غير ناصع يمتد إلى بطنه ، وفي عينيه الصفراوين أكثر من دعوة للمبارزة .

لقد كان بالأمس يتحدى القرية ومن في القرية . . لقد كان بالأمس يشبه هذا الذئب إلى حد كبير ، وها هو اليوم يشعر بكل هذا الضعف .

أهكذا الإنسان . . ينتقل بسرعة من حال إلى حال؟

لماذا أخذت الأفكار ترد عليه ، مرة واحدة ، وبهذا الوضوح؟

لماذا استيقظت قواه العقلية بهذا الشكل الغريب المخيف؟

هل سيكون قبره في بطن الذئب؟

تململ في مكانه ، وتلفت يمنة ويسرة ، هذه الأرض تبدو جميلة جميلة كأجمل ما رأتها عيناه ، والحشائش الخضراء النضرة ، والسماء الصافية إلا من تلك الغيمة البعيدة ، أين ذهب الرجل؟

زمجر الذئب ، وتهيأ في حركة قوية ، وضرب حجراً قريباً فأبعده .

إنه يريد أن يتحرك ، أن يزيح عنه هذا الكابوس ، إنه يريد أن يهجم على الذئب فيدق عنقه .

((لماذا لم تأتِ بالأمس أيها الذئب الأغبر؟

أنت جبان ، ولو لم تكن جباناً لما طمعت في لحمي وأنا في مثل هذا الضعف .

هل كنت بالأمس جباناً عندما هاجمت الرجل العابد ، ذلك المسكين الذي كان يعيش مع أذكاره وأدعيته؟ إنني لم أرحم ضعفه ، لم أرحم وحدته .

لا تكن قاسياً معي أيها الذئب ، فإنني عدت إلى الله ، عدت إليه .

اغرب عن وجهي ، إنك لو مزقت جسدي لما وجدت فيه غير قلب ينبض بذكر الله تعالى)) .

ورفع رأسه إلى السماء :

- يا رب . . يا رب العالمين . . لا أريد أن يمزقني الذئب . . يا إلهي إني أريد أن أصل إلى القرية التي يعبدك فيها أناس عرفوا الطريق إليك ، وعرفوا أن السعادة في طاعتك . . فأريد أن أعبدك معهم ، أنا يا رب تبت إليك . . جئتك بكل قلبي ، فلا تتركني لهذا الذئب .

سمع عدداً من العصافير تشقشق ، وعلى مسافة ليست بعيدة ، شاهد مجموعة من النحل ، تفرقت بعد قليل وابتعدت .

((ماذا ينتظر الذئب؟ إن وقوفك كالحجر الجامد يقتلني ، أتظن أنني أخافك أيها الذئب؟ لا والله . . ولكن ليست لدي القوة الكافية لكي ألقنك درساً لن تنساه .

بالله عليك أيها الذئب ، دعني لآلامي وجروحي التي أثقلتني ، اترك لي بقية الأنفاس أتمتع بها في طاعة الله ، لا تحرمني من لذة العودة إلى الله ، هل تريد أن تقطع علي الطريق؟ يالك من جبان!))

أراد أن يصرخ كما كان يفعل بالأمس ، وأن يلقي بنفسه على الذئب ، فيحمله ويرميه في بطن الوادي ، ولكن . . شعر أن قوته لم تعد تلبي طلبه .

هل يستسلم؟

إنه لا يريد أن ينهزم ، إنه يريد أن يصل إلى القرية مهما كلف الأمر .

إذا تمكن منه هذا الذئب ، فماذا سيأكل منه أولاً؟ لا شك أنه سيمزق عنقه ، وسيأتي على بقية جسده بعد ذلك .

سيمزق هذا الثوب . .

ولكن ثوبه لم يكن جديداً .

هل يستطيع هذا الذئب أن يأكل رجلاً بهذا الحجم؟

خارت قواه ، وشعر كأن الأرض والجبال تميد به . . وسقط مغشياً عليه!

***

مضت فترة طويلة ، غاب فيها عن الوجود ، وكان عبارة عن جثة كبيرة ملقاة على الجبل ، ثم شعر كأن شيئاً يدب فوقه ، بل شعر بضربات على وجهه .

إنه الذئب . . لقد هجم عليه . .

ماذا أكل منه الذئب لحد الآن؟ لعله بدأ برجله ، وأراد أن يحرك رجله ، ولكنه شعر كأنها مقطوعة ، ثم شعر بضربات لطيفة ودودة ، موقظة ، وسمع صوتاً يقول :

ـ استيقظ يا رجل .

وفتح عينيه . . فإذا بفتى يرشّ الماء على وجهه ، ويناديه .

فتأكد أنه لم يمت بعد .

لقد كانت هناك بقية من أنفاس سوف يصل بها إلى القرية .

نظر إلى الفتى ، كان يتفجر قوة وحيوية ، كان شاربه الأشقر طويلاً يمتد على طول شفته العليا ، ثم يرتفع في انحراف جميل نحو خده .

وسأله بصوت ضعيف :

ـ هل قتلت الذئب؟

قال الفتى وهو يعينه على الجلوس :

ـ كلا . . لقد هرب .

تنهد وهو يتمتم :

ـ الحمد لله . .

ثم سأله الفتى وهو يعدل شاربه :

ـ أين وجهتك؟

فأخبره بأنه يريد القرية التي فيها قوم يعبدون الله .

فنهض الفتى وهو يشير نحو مغرب الشمس وقال :

ـ إنها ليست بعيدة . . إنها هناك .

ومضى خطوات ، ثم كرّ راجعاً ، وسأله بنبرة حادة وقال :

ـ أين يقع جبل الشيطان؟

ـ جبل الشيطان؟!

قالها وهو ينظر إليه باستغراب ، إنه لم يسمع بهذا الاسم قط .

وعاد الفتى بقوامه الطويل ، وأشار بيده وقال :

ـ الجبل الذي يأوي إليه شرار الناس ، وعلى سفحه قرية تضم عوائل أولئك الأشرار .

لم يستطع أن يجيب ، فهذا الجبل جبل الأبطال ، وتلك القرية ، هي قلعة الأبطال . . تلك قريته التي قضى فيها شطر

حياته التي ابتعد فيها عن الله . . وذلك هو الجبل الذي كان يأوي إليه ، وكان جبلاً ممتنعاً غنياً بالكهوف المظلمة .

وعاد الفتى يقول مرة أخرى :

ـ أين يقع جبل الشيطان؟

فأشار بيده إلى الناحية التي يقع فيها الجبل :

ـ إنه هناك .

لوَّح الفتى بيده وهو يبتعد . . وقال دون أن يلتفت :

ـ إنني أبحث عن رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، أريد أن أقتله ، أيظن هذا الظالم أن الله يمهله؟

وذهب وهو يهبط الجبل ، ولم يدرِ هذا الفتى الشجاع ، أنه أنقذ من أنياب الذئب غريمه الذي يريد قتله!!

ومن يدري ، ربما لو علم به ،لحمله على يده ، وألقاه في الوادي . . تماماً كما فعل هو بذلك الرجل الذي كان يستغيث .

ماذا لو علم أهل القرية أنه قتل صاحبهم الرجل العابد ، الذي كانوا يحبونه حباً يبلغ شغاف القلوب ، إنهم لو علموا لما تركوه حياً إلى هذه الساعة .

إذن فقد كان يأوي إلى جبل الشيطان ، لا جبل الأبطال كما كانوا يسمونه!!

ولما آنس من نفسه بعض القوة نهض ، وسار متمهلاً إلى الناحية التي أشار إليها الفتى .

أين هي القرية؟

ليته استطاع أن يراها بعينه ، إذن لعادت له قوته ، لعاد له أمله ، إنه لا يريد أن ينهزم ، إنه يريد أن يصل إلى القرية مهما كلف الأمر .

انحدر من الجبل ، وأخذ يسير في سهل أجرد ، وكانت الشمس قد مالت قليلاً ، وشعر بحرارتها تضرب رأسه ، ثم شعر بالعطش ، وشيء من الجوع ، وجفّ حلقه .

كان يرى الطيور محلقة في السماء ، وبعض العصافير تمر مسرعة ، والسماء بدت باهتة لا جمال فيها ، ولا يوجد نبات في هذه الناحية .

وفي الأفق ، أطلت غيمة بيضاء يبدو عليها الخمول .

سار الرجل ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، والتضرع إليه ، في أن يقبل توبته ، وكان كلما ازداد توسله وتضرعه ، ازداد شعور بلذة العودة ، وازدادت نفسه تطلعاً إلى الله وطمعاً في عفوه ورضاه ، وتفتحت أمامه نوافذ كانت مغلقة ، بل لم يكن يراها أصلاً .

فهذا الكون ، وما فيه ، كله لله . . كله لخالق الأرض والسماء ، كيف ينسى الناس هذه الحقيقة؟!

لقد قضى حياته يخوض في الأوحال والأقذار ليصل إلى النار ، كانت النار تحيط به من كل جانب ، وكانت تتناوشه بألسنتها ، بلهيبها ، ولكن لم يكن يحس بحرارتها ، لأنه كان كالمجنون ، أو كالسكران ، أو كالذي تناول مخدراً فلم يعد يشعر بما يؤذيه .

((كيف قضيت حياتي غافلاً عما يحيط بي ، كيف قضيت تلك الأيام المظلمة؟

كيف ضيعت حياتي في الاعتداء على خلق الله؟

يا رب . .

ها أنا يا إلهي أعود إليك ، وكل ذرة في كياني تسبح بحمدك وتقدس لك ، أنا عبدك الآبق عدت إليك . .

أطرح نفسي على بابك . .

وأنت الكريم . . وأنت العفو . . وأنت الغفور . .

حنانك يا رب . . يا رب العالمين))

كان يسير والدموع تنساب على وجنتيه ، وكان يشعر كأن هذه الأرض التي يطأها لأول مرة ، كأنها تعرفه ، كأنها تستقبله ، فلم يتعثر في سيره ، ولم يسقط ، ولم يجد ما يعترض سبيله .

((أريد أن أرى الوجوه الطيبة ، وأن أرى القوم الذين عرفوا ربهم فعبدوه ، ليتني أصل إليهم)) .

وشعر مرة أخرى بقواه تخور ، ولكنه تحامل على نفسه ، وصبر ، ثم وقف في مكانه . .

لقد سمع صوت حداء ، إن الصوت يأتي من هناك ، من ناحية الشرق ، والتفت ، فإذا بركب من الناس ، يمتطي بعضهم الجياد ، يتقدمهم الحادي ، على جواد أبيض . . كان صوته طرياً نديأً رقيقاً . .

يا له من صوت جميل ، إنه يذكره بصوت ذلك الهندي ، الذي رآه مرة يقطع الجبال ، ويغني بصوت شعر في حينها كأن الجبال تغني معه ، وإن لم يفهم من كلمات تلك الأغنية شيئاً ، لكنها هزته ، وملكت عليه مشاعره .

يا له من صوت جميل!

نظر إلى الركب وإلى هذا الحادي الذي كان يتقدمهم ، وأراد أن يصيح ، وركض ملوحاً بيده . .

ولكنه سقط على الأرض ، ولم يسعفه صوته .

وبقي في مكانه يرقب الركب وهو يتجه إلى الناحية التي يريدها ، ولم يقوَ على النهوض . . وتنهد بحسرة ، أو لو استطاع أن يناديهم ، أو لو استطاعوا أن يحملوه معهم .

ما أروع هذه الخيول . . إنها تبدو في هذه الأرض القفر ، في انسجام حركاتها ، وفي مسيرتها ، كأنها قافلة الأحلام .

((من يوم ماتت أمي وأنا أحس بالضياع . . كنت تائهاً ، وأشعر بما يشعر به التائه ، وكنت بين الحين والحين أسمع صوت أمي تناديني عندما أكون منهكاً متعباً ، في الساعات الأخيرة من الليل ، كان يتهيئ لي كأنني أسمع صوتها يناديني ، بل . . كأنها تجلس إلى جانبي تحدثني :

ـ لا تبتعد عني . . لا تبتعد عن الله .

لا تذهب في الطريق المظلم ، فإنه يؤدي بك إلى جهنم . . . تذكر وصيتي ، عد إلى الله ، امشِ في النور . . فإنه يمهد لك الطريق إلى الجنة .

كنت أنفعل كثيراً ، وأبكي ، ولكن . . عندما يطلع الصبح ، وألتقي بأولئك الأشرار في جبل الشيطان ، يتبخر كل شيء . . ولا أشعر إلا وقد عدت إلى الطريق المسدود)) .

كانت قواه العقلية قد استيقظت بشكل عجيب ، وأخذت تروي له تفاصيل حياته . . أدقّ التفاصيل .

وسخر في نفسه من أولئك الذين يدَّعون تبلد قواهم العقلية عندما يمرضون ، ومضى يزحف على الأرض . إنه لا يريد أن يتوقف هذه المرة ، لا يريد أن يتراجع .

لم تكن الأرض صعبة ، ولذلك لم تتأثر يداه ، ولا رجلاه كثيراً ، ورأى الغيمة قد اقتربت ، وقد تبعتها أخرى تبدو أصغر منها ، وقطعة صغيرة إلى الوراء .

ورأى من بعيد حشائش خضراء ، وعدداً من الطيور تحوم حولها ، إنها عين ماء . .

وأخذ يحدث نفسه بالوصول إليها ، إنها في أسفل التل ، ويستطيع أن يصل إليها لو بذل جهداً أكثر ، لعل قواه تعود إليه عندما يشرب من مائها ، ويمضغ بعض الحشائش ، إنها تبدو زاهية مغرية .

كانت الشمس قد مالت كثيراً ، ولم يعد يشعر بحرارتها ، ونسيمات الهواء بدأت تبرد ، ولم يعد يرى الركب ، ولا يسمع صوت الحادي .

ويبدو أن أمطار الليلة الماضية ، لم تسقط على هذه الناحية ، فالأرض هنا جافة ، وهذا التل المنفرد يمتد على خط

طويل بحيث يتعذر على الذي يريد الوصول إلى الناحية الأخرى أن يتخطاه إلا من مسافة بعيدة .

ولكن لماذا يفكر بالصعود على التل ، وهو لم يصل بعد؟!

وعلى ذكر الليلة الماضية ، تذكر العجوز ، والطفل .

كيف ترى سينشأ الطفل؟ لا بد أن أمه ستقص عليه قصتي معهم ، عندما يكبر ، وستقول له : لقد حلّ عندنا ضيف غريب ، أكرمناه . . ولكنه ظهر فيما بعد أنه مجرم ، قتل مائة نفس . . قتل الرجل العابد!!

ورفع رأسه إلى السماء :

ـ يا رب إني تبت إليك . . يا رب إني تبت إليك .

إن المرأة العجوز قد أسدت إليه معروفاً لن ينساه . . إنه لولاها لعاد اليوم إلى سابق عهده ، لعاد إلى قلعة الأبطال . . لا . . قلعة الشيطان .

إنهم سينتظرون عودته ، سيقولون : إنه سوف يعود إلينا ، كما كان يعود في كل مرة .

« اللهم إني أسألك إنابة لا رجعة بعدها ولا حَوَر ، يا مصلح الصالحين ، يا مهدي المضلين ، يا أرحم الراحمين» .

ووضع رأسه على الأرض ، وراح يبكي .

كان يقترب في زحفه من العين التي كانت في أسفل التل ، ولم يبقَ على اختفاء الشمس وراء التل إلا ما يعادل قامة رجل بطوله . . ولم تعد الغيمة وحدها فقد جرّت وراءها غيوماً كثيرة .

ما الذي أصابه؟ لعل شدة الجري في الليلة الماضية قد أثّر في أحشائه؟!

ها قد اقترب من العين ، فنفرت الطيور وحلقت ، واختفت الشمس وراء التل ، الذي غطّاه الظل .

لا بد أن تكون القرية وراء هذا التل ، لمَ لا تكون وراءه فعلاً .

أيبلغ به الضعف هذا المبلغ؟

والتفت إلى الخلف . . لقد قطع مسافة لا بأس بها ، ولكنه شاهد حيواناً يجري ، مقبلاً من ناحية الجبل ، وتطلّع إليه جيداً ، أيكون هذا هو الذئب؟ قد عاد مرة أخرى؟!

ومضى في زحفه ، إن الذي نجّاه في المرة الأولى يستطيع أن ينجّيه هذه المرة أيضاً ، واشتدّ عليه العطش . . واقترب من العين .

كانت محاطة ببعض الصخور الملساء ، وكان ماؤها قريباً من مستوى سطح الأرض ، ولكنه لا يجري .

وبصعوبة ألقى بنفسه عليها ، ومدَّ يده فغسلها ، وبلّل وجهه وشفتيه ، ثم ترك قطرات تنزل إلى جوفه ، واكتفى بهذه

القطرات ، ولم يشعر بعدها بحاجة إلى الماء ، ولكنه لم يستعد نشاطه ، ولا قوته .

نظر إلى التل نظرة فيها الكثير من الألم والتعب ، لو استطاع أن يتسلقه لرأى القرية ، ولتمتع برؤية الناس الذين يعبدون الله ، وإذا رأى أحداً ، فسيطلب نجدته .

وسمع إلى جانبه حركة ، وصوتاً ، فالتفت . . هذا الحيوان قد وصل . . الحمد لله ، إذن لم يكن ذئباً كما كان يتصور ، إنه كلب .

ورأى في عينيه أكثر من سؤال . . بل قرأ فيهما سطور العطف عليه .

كان كلباً من النوع الكبير ، يميل لونه إلى البني الفاتح ، وكان أليفاً نظيفاً . .

أقبل على العين يشرب منها ، ثم رفع رأسه ينظر إليه ، كأنه يسأله عن حاله . . وكان قد شعر ببعض الراحة لوجود الكلب ، استمر يزحف .

كان التل ترابياً ، وقد وجد صعوبة في تسلقه . . ولكنه لم ييأس ومضى ، يتشبث بأعشابه وبصخوره ، عندها تذكر الرجل الذي كان يستغيث .

((يا إلهي لا تؤاخذني))

ورأى حيواناً يختفي في جحر قريب . ولكن ماله وللحيوان ، ومضى يدفع جسمه الكبير ، ولم تعد لديه القوة الكافية ، وسبقه الكلب بقفزة إلى أعلى التل ، ووقف ينظر إليه كأنه يستحثه ، وذكره هذا بمنظر العجوز التي سبقته إلى أعلى الجبل ووقفت تستحثه على الصعود .

لم يكن التل عالياً . . كان قليل الارتفاع ، ولكنه بالنسبة إليه ، وفي هذه الحالة ، يبدو كأعلى جبل .

لقد قطع مسافة لا يستهان بها ، ولم يبق على الوصول إلى قمة التل إلا خطوة واحدة .

((يا رب أعني . . ))

أغمض عينيه واستطاع أن يأخذ بعض الراحة . .

وكان مع كل دقة من دقات قلبه يذكر الله ، ويتضرع إليه ، ويرجو رحمته .

ما الذي يجنيه الإنسان من الدنيا؟ . . لماذا يضيّع وقته وهو رأس ماله في الحياة؟

كم تمر على الإنسان فرص يتركها تفلت من يده ثم يندم عليها . .

كان يستطيع أن يتوب قبل عشرين عاماً . .

لماذا لم يفعل؟!

واستطاع أن يدفع جسمه بمقدار إصبع أو إصبعين . . وتحسس قدمه ، وشعر أنها قد انتقلت من موضع ترابي إلى حجر صلب . وبلغ رأسه سطح التل ، وأطل ينظر . .

لم يكن التل عريضاً ، إن عرضه لا يزيد على خطوات . . واستطاع أن يتحرك أكثر ، فرأى السهل الممتد وراء التل . .

كان السهل جميلاً رائعاً . .

سبحان الله . . كم هو الفرق بين هذا السهل الأجرد الذي تركه وراء ظهره ، وهذا السهل الأخضر الذي يراه أمامه؟!

كل شيء قد تغير وراء التل حتى الهواء ، أحسن بعذوبته ورطوبته ، والشمس ترتفع قليلاً عن الأفق ، تداعبه وهو ينظر إليها باسطاً ذراعيه .

وزاد من جمال السماء هذه الغيوم البيض الكثيرة ، التي ازدحمت فوقه .

واستطاع أن يدفع نفسه على التل ، واستلقى على ظهره ، كانت لحيته الكثة قد تمرغت بالتراب ، وثيابه كلها متربة ، وكفه الكبيرة ، التي كانت قبل اليوم تفتت الصخر ، سقطت إلى

جانبه متخاذلة ، وكان يـردد مع دقـات قلبـه وعينـه تنظر إلـى السماء :

ـ يا الله . . يا الله . . يا أرحم الراحمين . . يا الله .

هل يستطيع أحد أن يحمله إلى القريـة ، ولكـن أيـن هـي القرية؟

يبدو أن الكلب قد آلمه منظر الرجل المتخاذل المطـروح علـى التل ، فذهب يعدو نحو مغرب الشمس .

حاول أن يدفع نفسه وهو على هذه الحال ، ولكنه شعر بـأن هذه الطريقة تؤلم رأسه ، فعاد مرة أخـرى ، وأخـذ يزحـف علـى بطنه ، واستطاع أن يصل إلى الحافـة الثانيـة مـن التـل ، الحافـة المطلة على السهل المعشب ، وهناك أسند ذقنه إلى يديـه ، وراح يتطلع إلى الأفق .

لقد جذب الأفق إليه قرص الشمس ، فضمها إليه بشوق ، واحمرّ وجهها خجلاً ، فزاد هذا الاحمرار من جمال الكون .

ورأى الكلب يعدو ، واستطاع أن يرى عن بعد . . ، عـدداً من الرعاة يسوقون أغنامهم ، لا شك أن القرية التـي يقصدهـا ، تبعد كثيراً عن هذا المكان .

هؤلاء الرعاة ينأون بأغنامهم في طلب الرزق ، ولا شك أن القرية أبعد بكثير مما يتصور رجل في مثل حالته .

لم تستطع الغيوم الصغيرة التي تقبل من جهة الأفق أن تحجب قرص الشمس ، ولكنها في هذه الناحية ازدحمت تماماً ، وتبدل الهواء . وشعر كأن نفسه تغيب ، ثم تعود . . أهذه هي سكرات الموت؟!

كان يغمض عينه ويفتحها ، ويحاول أن يتجه بصدره نحو القرية .

خيل إليه ، وهو في إغماءته أنه يسمع صوتاً :

ـ إن هذا الرجل جاء تائباً ، مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى .

كان لا يفتأ يردد مع نفسه . . لا إله إلا الله . . اللهم إني تبت إليك . . يا الله .

كان لسانه يتحرك فقط ، أما شفتاه فلم تقويا على الحركة .

وبصعوبة فتح عينه ، وخيل إليه كأنه يرى من ناحية الأفق وجه الطفلة الصغيرة التي رآها الليلة الماضية تلوح له بيدها مودعة .

أغمض عينيه ، وشعر كأنه يغوص في بحر فيغطيه ماء عظيم . . ثم سمع ذلك الحوار مرة أخرى :

- إنه لم يعمل خيراً قط .

واستطاع أن يفتح عينيه ، فرأى الشمس قد اختفت وراء الأفق ، وبدأت السماء ترسل رذاذاً ، فتذكر وصية أمه : إذا رأيت المطر ينزل فادع الله يا بني .

كان يراها في مثل هذه الأحوال تتضرع إليه سبحانه ، وهتف بكل جوارحه :

- يا أرحم الراحمين إني تبت إليك . . يا الله ، إني جئت إليك فاقبلني .

وخيل إليه مرة أخرى كأنه يرى أمه تقف على أرض خضراء ، تشير إليه . . أن هلم .

أهذا تأويل رؤياه؟

حاول أن يدفع نفسه مرة أخرى ، فتدلى رأسه نحو السهل الأخضر ، وأخذته غمرة الموت .

عاد يسمع ذلك الحوار . . ثم كأنه يرى شبحاً في صورة آدمي يشير بيده ويقول :

- قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتها كان أدنى فهو منها .

وحاول وهو في تلك الحالة أن يدفع نفسه . . وشعر كأنه تحرك فعلاً . . كأنه استطاع أن ينأى بصدره نحو القرية .

وحاول أن يتحرك أكثر . . أكثر . . فلم يستطع ، ولم يقوَ على الحركة ، فألقى نفسه بين يدي الرب وهو يقول :

ـ اللهم إني جئت إليك . . اللهم إني عدت إليك . . اللهم إني تبت إليك .

وأخذته غمرات الموت ، ومضت فترة طويلة قبل أن يعود ذلك الحوار . . وكان يتلهف لسماعه . . وينصت إليه بكل حواسه . . وسمع صوتاً يقول :

ـ إنه أدنى إلى الأرض التي أراد .

كانت الغيوم قد سدت آفاق السماء ، وطوّقت فم الرجل ابتسامة راضية ، وصعدت روحه إلى بارئها ، واختفى الرعاة . . وذهب الكلب وراءهم . . ثم هطلت الأمطار . .

***

# الفهـرس


الراهب ..... ٥

جريمة في الصومعة ..... ١٧

الباب الضيق ..... ٢٧

بداية الطريق ..... ٣٩

يقظة القلب ..... ٤٩

قوم يعبدون الله ..... ٥٧

في طريق العودة ..... ٧١

ثم هطلت الأمطار ..... ٨٥